المِنبَر

خُطب جُمعة بعدَ الثورة

الشيخ راشد الغنوشي

النادي الشبابي

المنبر

خطب جمعة بعد الثورة

المِنبَر

خُطبُ جُمعة بعدَ الثورة

الشَّيخ راشِد الغَنّوشي

العنوان: المنبر .. خطب جمعة بعد الثورة
المؤلف: الشيخ راشد الغنّوشي
الموضوع: فكر إسلامي حديث

عدد الصفحات: 144
حجم الكتاب: 17 - 24
وزن الورق: 70 غ.
وزن الغلاف: 250 غ.

خطّ الغلاف: أمين فحص
صف- رقن - إخراج: الصديق - بيروت
تنفيذ غلاف: بالاشتراك دار لبنان
الطباعة: دار لبنان
العنوان: بن عروس - تونس

حقوق الطبع محفوظة
طبعة تونس الثانية
2015

النادي الشبابي

دار المجتهد للنشر والتوزيع
ALMOJTAHED PUBLISHING HOUSE
daralmojtahed@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم[1]

بعد عشريات من القهر والطّغيان، وفي سِياق المساعي الجادة لرسم خارطة تونس الغد، تونس المحجّلة بثورتها الكريمة، وتأسيس مناخ متقدّم يقترن فيه الرقي بالإباء، ويقترن التحدي بمنازل العدل والانعتاق، حيث ينبسط لأجيالها حاضراً ومستقبَلاً مناخاً من الصّفاء والتآزر والوئام... في هذا السياق تندرج هذه الرسائل أو الموجّهات الواردة بإمضاء الشيخ راشد الغنوشي، وقد صدرت في خُطب جمعة تمّت في حيز زمني متقارب (2012 ـ 2013).

نقدمها كما وردت من مصادرها دون تدخل إلا ما تسمح به مهمّة التطويع أو النّقل من منطِق الخَطابة إلى منطق الكتابة، وهو ما يستدعي جهداً ومثابرة للحصول ما أمكن على جملة من مُتون مطابقة لأصولها دون تطرّق إلى شرح أو تأويل، حتى يتسنّى للقارئ حيز أوسع لإعادة استشكالها على نحو يتّسق مع فهمه وتكوينه. غير أنه لا بد من الإشارة إلى جملة من الثّوابت العامّة والمتعلقة بالشكل وبالمضمون، وهي بمثابة الخيط الرّابط بين كل تلك النصوص:

1 ـ **ثوابت** نستجليها في سلاسة التّعابير وفي اختيارٍ دقيق للألفاظ بما لها من إيحاءات وما تستبْطنه من دلالات، وفي تثْبيتها في مواضعها بما يتناسب تناسباً دقيقاً مع سلّم المقامات، سياسية كانت أم اجتماعية أم دعوية.. والأكثر من ذلك أن للغنوشي مهارةً نادرة لتطويع الكلمة الواحدة وتحويلها إلى قاموس من المعاني أو تكييفها، أو شحنها بالطاقة المعنوية المناسبة لبلوغ القصد مباشرة وبدون عناء.

(*) ملاحظة: تتقدم الدار بخالص الشكر لكل الأخوة والأخوات الذين ساهموا في إخراج النص مكتوباً بعد إفراغه من الشرائح الالكترونية والأقراص.

(1) تقديم ومتابعة من طريقة الخطابة إلى النص المكتوب الأستاذ صالح نوير.

لا غرو أن تكون «الكلمة» رهان الغنوشي الأول، وربما الأخير، وهو يدرك أن الكلمة هي الإناء والوعاء، وهي الفأس والرّفش، وهي الحرث، وهي النّسل، وهي بما تزخر به من بيان «سرّ» من أسرار الوجود. وقديماً وُصفت بالسحر وبالجنون، وهو يدرك أيضاً أن الكلمة هي مهد الحضارات والفيصل الواقي الذي يحول بين الإعمار والدّمار، وهي الرابط الأوثق بين الأكوان بعد ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

2 ـ **أكوان**. . لا تَصرفُ الغنوشي ـ أستاذ الفلسفة ـ عن النّظر إلى موضع قدميه، وعن مراوحة الواقع اليومي بوعورته ومنعرجاته وقيوده ومكبّلاته، وبما ينطوي عليه الشأن التونسي بدرجة أولى بسياساته ومؤسساته من حاجة ماسة للإصلاح أو التّرميم أو التّأسيس، وما يرافق هذه المهمّة من عراقيل، وما يلفّ المشهد العام من تداخل والتباس بين الموجود والمنشود. . شأن كلّ من يؤسس لمشروع عنوانه الحرية ابتداء والحرية انتهاء، أو الحرية كبوّابة رئيسية لمدينة المستقبل، أو مستقبل المدينة، معتمداً بعد الله سبحانه وتعالى على مشروعية المؤسسة العقلية مدعومة بالشريعة كمؤسسة، وما يستدعي ذلك من توظيف قواسم تأليفية جامعة ومشتركة بين المرجعيتين وتوأمتهما بما يفضي إلى ابتكار أو تبنّي منهج وسطي ذي موازنة دقيقة بين منزلتي المعقول والمنقول.

هكذا يظل الخطاب وجدانياً، عقلانياً، تأصيلياً، جامعاً بين إرهاصات الحجّة العقلية الصّارمة ومنازع البرهان الديكارتي المُفحِم؛ حجج يرفدها منطق قرين هو منطق الوجدان أو النّفاذ المباشر إلى أوتار العاطفة ليلامسها أو ليهزّها: فيضحكك وقد يبكيك أو يزعجك و قد يسلّيك أو «يوشكك وينتقشك» أو يصادمك ويُجاريك. . لتفكر وأنت خاشع أو تخشع وأنت تفكر بل يدرّبك على مناهج التفكير ويشغّل فيك سواكن العقل: تلك الآلة أو ذلك الجهاز الذي منحك الله إياه كي تعمل وتدبّر وتستنبط وتميز الخبائث من الطيبات. .

وأنت تقرأ خطابه أو تستمع إليه فأنت في أمس الحاجة إلى متابعة وتركيز وهو يتدرّج بك سُلّماً استدلالياً واستنتاجياً ومنهجاً تحليلياً وبنيوياً وليس تجميعيا تراكُمياً، فإذا ما ضاعت حلقة من سلسلة الأفكار صار من العسير مسايرة أو مواكبة ما يستتبع ذلك من استنتاجات. .

هكذا. . ويُحملك على كاهله أطواراً و ربما يُثقل كاهلك في الوقت ذاته بهموم الشأن العام ومصير الوطن وهموم الأمة ويقلدك أعباء الأمانة التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها. وبعبارة أوجز: إنه يسعى لصياغتك صياغة تنتقل بك من ضيق الذّات إلى سَعة الموضوع، ومن منطقة التلقّي إلى ضفاف العطاء، أو من دائرة الأثرة إلى مربّعات الإيثار، ومن رذائل النّهم إلى فضائل المروءة والكرم وينتشلك من أضغاث الدنيا إلى يقظة الآخرة. . أو يجعل منك قبَساً منه يُستلهم الضياء لينير سبل الضّالين ومنارة تهدي التّائهين. . مقابل رضوان من الله وعملا بتكليفه. .

3 ـ **التكليف** عند الأستاذ راشد يحمل معنى من معاني ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾ ولا مجال فيه للتوقف على الرُبا أو الخوض في حوار بيزنطي مفرَغ أو الركون إلى أبراج فكر أكاديمي مُنْبتّ.. لذلك لم يكن أثناء عمله بمنأى عن الزيغ والزلل أو الارتباك.. ومن يحرث الأرض يناله من طينها وغبارها وأوحالها الشيء الكثير.. وهو الذي مضى يلامس الأرض والتاريخ وحتى الجغرافيا ويسعى بسلاح المعرفة لامتلاك مفاتيح التغيير بأنواعها، سياسية كانت أم فكرية أم دعوية أم اجتماعية.. فلا غرو وأنت تجوب البلاد أن تعثر على مواقع للغنوشي في جُلّ المنابر الحزبية وفي قلب الحراك الحقوقي والجمعياتي وفي الواجهة الدعوية وفي أروقة الجامعات وعلى منصة المفكرين... ولا يغترب مطلقاً عن الساحات العامة والأسواق.. ولا أقول: الليل والخيل والبيداء.. وهو يلامس أوتار الروح ويداعب أمواجها بقدرما ينفذ إلى عمق الصلصال ليُخلّص طهره من غيره ويحرر تبره من ترابه.. أو يحوّله إلى فخار أنقى. وقد يتخلل المسيرة ضروب من الأخطاء يقابلها أصناف من المضايقة أو الاستهزاء.. لكنه على درب الأنبياء... يمضي...

* * *

النادي الشبابي

مجالات الإدراك العقلي ومناهج الحكم في الإسلام[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾ [الأحزاب: 70 ـ 71][3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أيها الإخوة أيها الأبناء نحييكم بخير التحية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حدود العقل ومتاهات الفلسفة:

جاء هذا الدين شفاء لكل أمراض الناس وجاء رحمة للعالمين وليقدم لعقول الناس الهداية والتوجيه في كل شأن من شؤون حياتهم في مجالات قدمت تفاصيل كما هو الشأن في العقائد وكما هو شأن العبادات والأخلاقيات لأن عقول الناس تعجز عن الحقيقة لإدراك هذه المجالات.

ولقد رأينا أن العقول عندما خاضت في المسائل الغيبية لم تأت بنتائج تذكر كما قال

---

(1) 27 جويلية 2012.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

الفلاسفة ـ ومن بينهم الفيلسوف الألماني «كانط» ـ الذي يقول: عندما خرج العقل عن نطاق المحسوسات لم يأت إلا بالنقائض أو يأتي بالحقيقة ونقيضها، وهي النتيجة نفسها التي وصل إليها العلامة ابن خلدون الذي أكد أن العقل البشري غير مؤهل للوصول إلى حقائق الفلسفة وأن الفائدة الوحيدة التي يمكن جنايتها من الفلسفة هي أنها تعود الناس على التفكير ولكنها لا تأتي بالحقائق لأن العقل يعجز إذا تجاوز حدود الزمان والمكان، لذلك وقعت الفلسفة في متاهات.

جاء الدين ليعفي عقل الإنسان من أن يتبدد في الصحاري وفي المتاهات: وكل ما يتعلق بعالم الغيب: كيف بدأ الكون كيف بدأ الإنسان ما هو مصير الإنسان.. هذه مسائل كلها ركز عليها القرآن المكي وأكد عليها كل الأنبياء وقد جاء هؤلاء ليعلموا الناس كيف يعبدون الله سبحانه وتعالى وكيف يعرفونه المعرفة الحقيقية ليعبدوه.

إن عقل الإنسان يستطيع أن يصل لمعرفة أن للكون إلهاً؛ ولكن ما هي صفاته وما هي علاقته إن كانت واحدة أم متعددة فهذا ما لا يمكن أن تدركه العقول.

مواطن من الحكمة يعجز العقل عن إدراكها:

والله سبحانه وتعالى رحمة منه بخلقه وهو أعلم بمن خلق فقد أرسل إليهم النبوات لتدلهم على خارطة الطريق في كل ما يتعلق بعالم الغيب وتدل خارطة الطريق على كل تفاصيل العبادة ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»** بينما يظل العقل لا يدرك أسباب العبادات وعلى سبيل المثال: لماذا فُرض الظهر أربعاً؟ ولماذا هنالك خمس صلوات وليس ستة؟ ولماذا كانت الصلوات بهذه الكيفية وليس بغيرها؟ وفي كل هذا فإن العقل لا يستطيع أن يدرك العلة والحكمة. ولكن الحكمة من ذلك هي الامتثال لله سبحانه وتعالى ونحن نعبد الله ونصلي خمسا امتثالا لله وهذه الصلوات نقوم بها بتلك الكيفية امتثالا لله لأن المعنى الأساسي للدين هو ترويض النفوس على طاعة الله والخضوع لله والانقياد له لذلك فالإسلام هو الانقياد الكامل لله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1]. فمقصد أساسي من مقاصد النبوات هو تعريف الناس بربهم. وتعريف الناس كيف يعبدون الله بطريقة لا تجعلهم يتيهون ولا يقعون في الدجل وفي الخرافات ويعلمهم تحقيق الهدف في حياتهم وكيف يصلون إلى السّعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة. وكذلك الشأن في المسائل الأخلاقية حول ما هو الخير وما هو الشر ما هو الحلال وما هو الحرام هكذا فإن مسائل الأخلاق هي أيضاً كما قال الفيلسوف «كانط» عندما أراد العقل أن يعتمد على نفسه في الوصول إليها مستغنيا عن النبوات

---

(1) سورة البينة، آية: 5، انظر: ابن كثير: 8/ 456، والطبري 540/24، والقرطبي 180/5، وفي ظلال القرآن 76/8، والتحرير والتنوير 468/30.

قال الإمام الطبري في تفسيرها: مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك.

فهو أيضاً قد تاه ووصل إلى ما يسمى بالنسبية بمعنى أنه ليس هنا خير ولا شر وكل ما تعتبره أنت خير يعتبره الآخرون شراً. . أنت تعتبر المحافظة على الشرف خير والآخر يعتبره من الحرية ولذلك فإن الحرية دون ضوابط أخلاقية من الدين فإنها لا تصل في النهاية إلا إلى الفوضى. ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنه لا بد من الاحتكام إلى ما جاءت به النبوات وخاتمهم النبي عليه الصلاة والسلام.

إن الإسلام هو خلاصة كل الديانات وجاء ليشغل عقولنا في المواطن التي هي مؤهلة لها لتصل بها إلى الحقائق. والمواطن التي لا يصل فيها إلى الحقيقة فقد جاء الدين ليعفيه من أن يضيع جهده بحثا عنها كما هو الشأن في العقائد وفي الغيبيات وفي قضايا الأخلاقيات وقضايا العبادات.

مجالات العقل وضوابطها:

أما المسائل الأخرى الدنيوية وما يتعلق بتنظيم الحياة فإن الدين لم يتركه ضائعا ولكن وضع فيه طرقا وعلامات كبرى ومؤشرات وما سماه سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ «معالم في الطريق» وهي معالم في طريق الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أما التفاصيل فذلك موكول إلى عقولنا وهي نستطيع أن تدرك. ولذلك عندما رأى النبي عليه الصلاة والسلام أهل المدينة يلقحون النخل ونقل اللقاح فما رآى في هذا اللقاح فائدة. . والنبي ﷺ لم ينشأ في جهة بها واحات بل جاء من جهة هي واد غير ذي زرع تذكر. واستجاب بعضهم ـ على أن ترك التلقيح تلك السنة. فجاء التمر شيصا فقالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ فقال كلمته المشهورة **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»**. هذا المعنى يأخذه بعض الناس أنه لا شأن للإسلام بأمور الدنيا، سواء في الاقتصاد أو في الاجتماع وهذا فهم خاطئ لأن الديانات جاءت لإصلاح حياة الناس. ومقصد من مقاصد الدين كلها إصلاح حياة الناس.

فماذا تعني **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»**؟ معنى ذلك أن هذا الدين لم يأت ليعلمنا كيف نزرع وكيف نحصد وهل نستخدم في الزراعة الدوابّ أو الآلات ولم يأت ليعلمنا أن نظام الطرقات يكون بهذه الطريقة أو بتلك. .أو النظام الإداري. . فالدين لم يكن يعالج المسائل الفنية التي يمكن لعقول الناس الوصول إليها. .وإنما يعالج الدين الضوابط الكبرى من حلال وحرام ومن خير وشر وحق وباطل وسائر الموازين الأخرى ثم يترك بعد ذلك لعقول الناس أن تتطور ضمن ذلك السياق ولذلك فإن المسائل الفنية في عالم الاقتصاد وفي عالم الإدارة يمكن لعقولنا الوصول إليها ومن ذلك نوعية الأنظمة السياسية والإسلام له شأن بالسياسة وله علاقة بها لأن السياسة هي رعاية مصالح الناس وهي تحقيق التوافق بين البشر وتحقيق مقاصد الخلق في العدل.

لقد حدد لنا الإسلام ضوابط في هذا المجال فقال: [الشورى: 38] بما يعني أن كل ما يتعلق بمصالح الناس في الخيارات الكبرى لا ينبغي أن يقضي فيها فرد أو مجموعة أو عائلة وإنما

أمرهم شورى بينهم بالمصطلح الشرعي والسياسي. والأمور السياسية في خياراتها الكبرى كأمور الحرب والسلم وسائر المسائل الكبرى الأخرى فلا ينبغي أن يحتكر التقرير فيها فرد أو مجموعة أفراد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] بما يعني أن كل ما يتعلق بمصالح الناس في الخيارات الكبرى لا ينبغي أن يقضي فيها فرد أو مجموعة أو عائلة وإنما أمرهم شورى بينهم بالمصطلح الشرعي والسياسي. والأمور السياسية في خياراتها الكبرى كأمور الحرب والسلم وسائر المسائل الكبرى الأخرى فلا ينبغي أن يحتكر التقرير فيها فرد أو مجموعة أفراد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

والحقيقة أن الشورى كقاعدة كبرى في التشريع الإسلامي لا يستدل عليها بآية فقط من سورة الشورى وبآية من سورة آل عمران وإنما هي مقصد من مقاصد الشرع وأوسع من ذلك ولذلك رأينا حلول الفرعنة كمقابل غياب حكم الشورى. فالوجه المقابل لحكم الشورى في الإسلام هو الحكم الفرعوني. ولذلك رأينا حملة شرسة متكررة في القرآن ضد فرعون.

مقاربات في الإسلام ومناهج الحكم:

وفرعون ليس اسماً لحاكم وإنما هو رمز للاستبداد. جاء القرآن كله حملات متوالية على نظام الاستبداد لصالح نظام الشورى ولذلك رأينا ثناء على ملكة لم تكن مسلمة ولكنها كانت تطبق الشورى: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[3]. إن ملكة سبأ على الرغم من أنها لم تكن مسلمة وكانت وثنية ولكن الله سبحانه وتعالى أورد حكمها والحديث عنها في معرض الثناء عليها حتى في النهاية تمكنت من إنقاذ قومها من مهلكة كانت ستحل بهم.

لكن نظام الشورى هذا الذي نتحدث عنه: ما هو شكله؟ الحكم في الإسلام ينبغي أن يكون عدلا وأن يكون شورى وأن لا يكون وراثيا والسلطة لا تورث ولا شرعية للحاكم إلا تلك التي يستمدها من الناس ولذلك تظل تصرفاته خاضعة للمساءلة فهو حكم مدني بأتم معنى الكلمة. لكن ما هو شكل هذا الحكم؟ هل هو حكم برلماني؟ هل هو حكم رئاسي أم هو مزيج بينهما؟ هذه المسائل تندرج ضمن المسائل الفنية ولذلك إذا ألقينا نظرة على تاريخ الإسلام لا نرى شكلاً محدداً للحكم حتى في عهد الخلفاء الراشدين رأينا أكثر من نموذج.

لقد انتقلت الخلافة من النبي ﷺ إلى أبي بكر بطريقة كلها شورية لكنها اختلفت عن طريقة

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 159، انظر: ابن كثير: 2/ 148، والطبري 7/ 343، والقرطبي 4/ 249، وفي ظلال القرآن 1/ 476، والتحرير والتنوير 1/ 400.

(2) سورة الشورى، الآية: 38، انظر: ابن كثير: 7/ 210، والطبري 21/ 454، والقرطبي 16/ 36، وفي ظلال القرآن 6/ 326، والتحرير والتنوير 25/ 23.

(3) سورة النمل: الآية 32، انظر: ابن كثير: 6/ 189، والطبري 19/ 453، والقرطبي 13/ 194، وفي ظلال القرآن 5/ 381، والتحرير والتنوير 19/ 262.

انتقالها من أبي بكر إلى عمر وكذلك من عمر إلى عثمان ومن عثمان إلى علي. . اختلفت الكيفيات لكن كلها أشكال من أشكال الشورى. . وبعد ذلك ولم ينقطع الحكم الإسلامي بسقوط نظام الخلافة واستمر بأشكال مختلفة وكانت آخر خلافة هي الخلافة العثمانية. وفي كل ذلك أشكال متنوعة من الحكم الإسلامي. وانتقلت هذه الأشكال من حكم الشورى في عهد الخلفاء الراشدين إلى الملك العضوض في العهدين الأموي والعباسي ويمكن أن نلخص ذلك الحكم في ما يلي:

ـ رأينا السلطة التنفيذية يحتكرها الحاكم من كونه ملكا أو خليفة ولكنه يمثل السلطة التنفيذية.

ـ أما السلطة التشريعية فكانت بيد الفقهاء لأن التشريع الجزئي إنما ينطلق من القرآن ومن السنة وهذه صناعة الفقهاء. وكان هذا جوهر ثورة أحمد بن حنبل، ذلك الإمام العظيم، لقد ثار على حاكم من كبار المثقفين الذي هو المأمون العباسي وهو العالم والمثقف والفيلسوف فكر من أن يجعل من فهمه وتفسيره للقرآن وللعقيدة الإسلامية موقفا رسميا يفرضه على الأمة الإسلامية، فثار عليه أحمد بن حنبل ورفض عليه هذا الحق. **إذ لا حق للحاكم في الإسلام أن يفرض تفسيراً للقرآن على الناس.**

وحتى أن الإمام مالكاً لما طلب إليه الخليفة المنصور ـ وقد كثرت المذاهب واختلفت التفاسير ـ طلب إليه أن يوطئ للأمة مُوطّأ يجمع فيه بين مختلف الآراء في منهج وسطي فقدم إليه «الموطأ» وهو أول كتاب في الحضارة الإسلامية. وأعجب به المنصور إعجاباً كبيراً واستأذنه بأن يفرضه فهماً وتفسيراً وتطبيقاً رسميًا للإسلام تفرضه الدولة على كل أجزاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

لم يكن الإمام مالكاً ليفرح بهذا كأي مثقف من المثقفين أو عالم من العلماء من أن الدولة تختار كتابه لتجعل منه البرنامج الرسمي. ولم يكن ليطير فرحا. لكن الإمام ثار فزعا قال: لا يا أمير المؤمنين لا تفعل ذلك فإن أصحاب محمد ﷺ قد تفرقوا في الأمصار ومعهم علم كثير وهذا ما وصلني أنا من علمهم فدع الناس وماذا يختارون. وتكرس في ذلك الفصل الأساسي بين الدولة وبين حق تدعيه بأنها تملك تفسير الإسلام أو تفسير القرآن.

هكذا فالدولة ليس من شأنها أن تفرض على الناس مذهباً معيناً. ولذلك بقيت أشكال الحكم في الإسلام تتنوع بتنوع الظروف. كان هناك حكم يشبه أن يكون حكماً رئاسيًا مطلقاً في زمن الخلفاء العباسيين وبعد ذلك تطور الأمر في العهد العباسي الثاني إلى نمط آخر من الحكم حيث أصبح الخليفة رمزا لوحدة الأمة. . ولكن من يدير الشأن اليومي؟ يديره الحاجب وهو بمثابة «رئيس الوزراء» ويسمى الوزير المفوّض فكان هناك في ظل العباسيين من البويهيين وعدد من الأسر هي التي كانت تدير شؤون الدولة اليومي. أما الخليفة فهو رمز لوحدة الأمة وهذا في الحقيقة نوع من النظام البرلماني لأن السلطة التشريعية لم تكن بيد الخليفة ولا بيد رئيس الوزراء

وإنما كانت بيد ممثلي الشعب الحقيقيين وهم العلماء وهم الذين يملكون السلطة التشريعية وهي سلطة تفسير النصوص.

كما يملك العلماء سلطة أخرى هي السلطة القضائية فلا شأن للحاكم في سلطة القضاء لأنها بيد العلماء.

الإسلام لم يأت بنظام سياسي محدد:

وكانت الحضارة الإسلامية نموذجا لسلطة الفقهاء ولاستقلال القضاء، ولذلك كان هناك تفريق في الحقيقة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية سلطة الفقهاء أو السلطة القضائية هذه هي الأشكال التي عرفت وخلاصتها:

ـ أن ليس في الإسلام نظام سياسي محدد.. نستطيع أن نقول: إن الإسلام تضمن مرجعية ومصدرا للتشريع يوجه السياسات ولكن لم يأت الإسلام بنظام سياسي محدد. أتانا الإسلام بمرجعية للقانون. والمسلمون في كل قوانينهم وسياساتهم ينبغي أن يستلهموا المرجعية الإسلامية في الكتاب والسنة ولكن فقط المدرسة الشيعية التي اعتبرت أن النظام السياسي إنما هو جزء من الوحي ولذلك أتوا بفكرة الإمام المعصوم وأن الأئمة معيّنون من الله سبحانه وتعالى ولا خيار للأمة لأن الأئمة معصومون لا يخطئون.

إلا أن المدرسة السنية وهي جمهرة المسلمين ظلت تنظر للحاكم على أنه بشر كبقية الناس ومن الناس يستمد شرعيته من الأمة وتظل تصرفاته خاضعة للمحاسبة والنقد وتبقى الأمة هي صاحبة الاختيار لتختار هذا النوع من الأنظمة أو ذاك فهذا شأنها.

ذكر الشيخ القرضاوي مرة في سؤال حول النظام البرلماني فقال: إن النظام البرلماني ليس إسلاميا استنادا إلى أن الإسلام يحث على طاعة الأمير والقرآن صريح في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1] والإسلام يحث الجماعة على أن يكون لها قائد وأن يكون لها أمير ويحثه على أن تطيعه كما تحث الأمير على أن يستشير بينما في النظام البرلماني كأن فيه أميرا لا يطاع أو كأنه مجرد هيكل ولذلك رأى أن النظام البرلماني الذي يقر بملك لا يملك وليس له مكان في التجربة الإسلامية وفي مقاصد الإسلام.

---

(1) سورة النساء، الآية: 59، انظر: ابن كثير: 2/ 342، والطبري 8/491، والقرطبي 5/258، وفي ظلال القرآن 2/159، والتحرير والتنوير 5/96.

وقد روى الإمام الطبري في تفسيرها أنهم أولوا الفقه في الدين والعقل. ونقل القرطبي أنه اختيار مالك رحمه الله. وقال العلامة ابن عاشور: فأولوا الأمر من الأمة ومن القوم هم الذين يُسند الناس إليهم شؤونهم ويعتمدون في ذلك عليهم، فيصير الأمر كأنه من خصائصهم.. ولما أمر الله بطاعة أولي الأمر علمنا أن أولي الأمر في نظر الشريعة طائفة معينة، وهم قدوة الأمة وأمناؤها.

ولقد ناقشناه في ذلك وذكرته أن التجربة الإسلامية التاريخية شهدت كل أنواع الحكم: الحكم الرئاسي المغلظ وشهدت نوعا من حكم الشورى وشهدت الحكم الذي ساد في معظم التاريخ الإسلامي وهو الخليفة الرمز لوحدة الأمة بينما الشأن اليومي يديره رئيس الوزراء أو الحاجب في ذلك الوقت.

هذه الحقيقة تاريخية دلالتها أنه ليس في الإسلام نظام محدد في الحكم وإنما هي مصلحة المسلمين.

والمهم ولكي يكون الحكم إسلاميا ينبغي أن يكون عادلا وأن يكون شوريا وأن ينضبط القانون فيه بمرجعية القرآن والسنة ومقاصد الإسلام أما كيف يترجم في الواقع هل يكون حكما رئاسيا أم برلمانيا فهذا تحدده الوقائع ومصلحة ذلك الشعب في زمن معين.

هل هناك ما هو أفضل في هذين النظامين الرئاسي والبرلماني؟ لا نستطيع في المطلق أن نقول هذا أفضل أو ذاك، لأن الحكم يأتي لمعالجة مشكلات محددة. نحن الآن أمام مشكل ينبغي أن نعالجه وهو أن مشكلة النظام السياسي في بلادنا اليوم هو كشكل الاستبداد.

أي نظام سياسي تحتاجه أمتنا اليوم؟:

نحن وارثون لثقافة مستبدة ثقافة تنظر بنوع من القداسة إلى الحاكم وتظل الأمة الإسلامية اليوم أحوج إلى تفكيك ثقافة الاستبداد وقيم الاستبداد وفي المقابل إشاعة روح الشورى والمشاركة.

هذا ما تحتاجه ثورات الربيع العربي اليوم وهي وريثة لأنظمة مستبدة ولثقافة مستبدة عبر القرون الطويلة. نحتاج إلى أمرين؛ أولاً كيف نفكك منظومة الاستبداد من ناحية، وثانياً كيف نحافظ على وحدة السلطة لأن السلطة مثل الشخصية شخصية الإنسان هي شخصية موحدة كذلك الدولة لا ينبغي أن تتفكك ولا ينبغي أن تتفتت.

إن النظام الرئاسي هو نظام يملك انسجاماً داخليًا ومركز السلطة فيه هو الرئيس. والنظام البرلماني هو أيضاً منسجم داخليا مركز السلطة فيه البرلمان والحكومة. . إذن نأخذ بهذا أو نأخذ بذاك فليس للإسلام مشكل مع هذا أو ذاك. والمهم في كل هذا أن نجتث جذور الاستبداد وأن يكون الحكم شورى وأن يكون عادلا.

هناك تلويح بالمزيج بين الرئاسي وبين البرلماني. هل إن هذا المزج ممكن وصالح؟ نحن جربنا في الأشهر الأخيرة ـ رغم أن النظام المحدد للسلطات والذي اتفقت عليه الترويكا ـ ينطلق من نظام برلماني في الحقيقة ولكن نتيجة التجاذبات داخل المجلس التأسيسي انتهينا إلى نظام مزيج من الرئاسي والبرلماني وعندما وضعنا هذا النظام على الأرض وصلنا إلى مشكلات غير قليلة وأصبحت الدولة ليس لها مركز واحد: (مركز يقرر أن يسلم «المحمودي» مثلا ومركز آخريقرر أن يؤجل ذلك يستبقيه. وهذا ما لا ينبغي أن يقع في الدولة. الدولة كيان واحد التصرف فيها

يكون بإرادة واحدة وليس إرادات. . ورأينا أيضاً في تنصيب المحافظ وعزله وقد حصلت مشكلات خلفيتها أن الدولة لم تعد كيانا واحدا وإرادة واحدة. ولذلك ليس هناك مشكل أن يكون هناك نظام رئاسي ديمقراطي أو نظام برلماني ولكن المشكل هو أن الدولة ينبغي أن لا تفقد وحدتها.

إن النظام الرئاسي في الولايات المتحدة واضح: برئيس يملك كل السلطة التنفيذية وبرلمان يملك كل السلطة التشريعية وهكذا تسير أمورهم لكن أن تأتي لتفتت السلطة التنفيذية وتجعل لها أكثر من رأس وينتج عن ذلك كأنما تزرع داخل النظام بذور التفتت وبذور التمزق.

واليوم عمليا عندما ننظر إلى ساحة العالم من حيث الأنظمة المطبقة ونرى أن معظم أنظمة العالم اليوم هي أنظمة برلمانية. فاتهام النظام البرلماني أنه يمكن أن ينتج الدكتاتورية هو نوع من التشخيص وعوض أن نحكم على الأنظمة كما هي في الواقع نريد أن نفصل على ضوء الميولات كما يقال بالعامية «شوف الوجوه وفرق اللحم» ونرى في تونس الآن كيف يمكن أن نقنع حزبا من الأحزاب المدنية أن يقود الدولة. مع أن الوضع الطبيعي في الديمقراطيات أن يكون هناك حزبا حاكما يمثل الأغلبية ويقود الدولة وهذا هو الوضع الطبيعي. وكأننا نريد أن نقول إن الديمقراطية تتنافى مع وجود حزب قوي يساهم ديمقراطياً بأغلبية بمعنى أن جوهر الديمقراطية أن تكون هناك أحزاب كبيرة حزب يملك الأغلبية يحكم وحزب آخر قوي في المعارضة.

وخلاصة كل ذلك أن الإسلام وقد بعثه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين ومن رحمته سبحانه وتعالى أن أفسح أمام عقولنا المجال للبحث عن كل الأشكال الممكنة لتطبيق قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] سواء تجسدت بهذا الشكل من الأنظمة أو بشكل آخر، والمهم أن تكون الشورى حاكمة وأن يكون العدل سائدا.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا ممن وصفهم وصف ثناء ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

* * *

(1) سورة الشورى، الآية: 83، انظر: ابن كثير: 7/ 211، والطبري 547/21، والقرطبي 36/16، وفي ظلال القرآن 326/6، والتحرير والتنوير 23/25.

قال الأستاذ سيد قطب: ومع أن هذه الآيات مكية، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم ينسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة.

الخطبة الثانية
رمضان ذلك الشهر المتميز

الحمد لله مالك الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله اللهم صل وسلم وبارك عليه صلاة ترضى بها عنا يا رب العالمين.

تعيش الأمة الإسلامية موسماً عظيماً من مواسم الخير شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.

إن العلاقة بين شهر رمضان وبين القرآن علاقة حميمة والله سبحانه وتعالى كما فضل بعض خلقه على بعض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1] اصطفاهم من خلقه وكان محمد ﷺ خير عباده الصالحين. اصطفى ربنا سبحانه وتعالى من السنة شهورا ومن الأسابيع أياما واختار يوم الجمعة في كل أسبوع فضله على بقية الأيام وفضل من بين الشهور شهر رمضان ليكون الوعاء الزمني الذي يتنزل فيه آخر كتب الله سبحانه وتعالى وآخر ما نزل من الوحي.

إن العلاقة بالقرآن يجب أن تكون حميمة ونؤكدها باستمرار الإقبال على كتاب الله في هذا الشهر وكان الكثير من الأئمة يتركون ما بين أيديهم من كتب ومن مشاغل علمية ليتفرغوا لكتاب الله سبحانه وتعالى باعتبار أن الصفة الأساسية لهذا الشهر أن نزل فيه كتاب الله سبحانه وتعالى وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. هذا الوعاء الزمني هو وعاء مهمّ ينبغي أن نحرص كل الحرص على أن نجدد علاقتنا بكتاب الله في هذا الشهر تلاوة وتمعناً وتأملاً وأن نحرك القرآن في هذا الشهر كما كانت تقول عائشة رضوان الله عليها حول رسول الله ﷺ: «كان

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 2/ 33، والطبري 326/6، والقرطبي 62/4، وفي ظلال القرآن 362/1، والتحرير والتنوير 229/3.

خلقه القرآن». وأن نتخلق ـ خاصة في هذا الشهر ـ بأخلاق القرآن وبأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام لأن الطاعات في هذا الشهر تتضاعف لكن الذنوب هي الأخرى تتضاعف في هذا الشهر. والذي يعصي الله في شهر رمضان ليس كالذي يعصيه خارجه. فالمعصية كلها معصية ولكن ذنوبها تتضاعف عندما تقترن بالأوقات المفضلة وأوقات العبادة مثل هذا الشهر الكريم. هذا الشهر تشهد فيه بلادنا مظاهر نمو جيدة نحو الأعمال الخيرية تنتشر في البلاد ومطلوب منا المساهمة في نشر الخير والرحمة والتكامل بين الناس وأن نصل أرحامنا في هذا الشهر ونكثر من التزاور ولنجعل من هذا الشهر شهراً متميزاً خاصة أنه أول شهر في التاريخ الحديث لتونس وهي تحت حكم حركة إسلامية. ينبغي أن يشعر الناس أن هناك شيئاً جديداً: الرحمة منتشرة والخيرات منتشرة تعاطف وتكامل بين الناس. وأن يشعر الجميع بأن هناك نمو خلقي ونمو روحي وأن هنالك اعتدال في الأسعار وليس هنالك شراسة في انتزاع أموال الناس بل هناك رحمة تنتشر بين الناس وهناك ظواهر إيجابية بدأت تلاحظ في هذا الشهر:

ـ بدأت مظاهر التفسخ تقلّ.

ـ مظاهر استفزاز الصائمين تقل.

ـ الكثير من المطاعم أغلقت من طرف أصحابها.

ـ للمرة الأولى في تاريخ شركات النقل يعفى بناتنا وأبناؤنا من توزيع الخمور على السواح في هذا الشهر والأمر انطلق من الموظفين أنفسهم ولم تأت من أوامر، بحيث هنالك روح تنتشر في المجتمع تبادر تلقائيا وتستغني عن الأوامر وإنما يبادرون بأنفسهم إلى فعل الخيرات.

رمضان وآداب المعاملة:

يُخشى أن تُستغل هذه الظواهر استغلالا سلبيا من مثل ما بلغنا أن هنالك من يستفز الناس كأن يفتح شرطي باب السيارة على رجل وامرأة ليسأل عن نوعية العلاقة التي تربط بينهما أو يدخل على دكان أسدلت عليه الستائر فيه أناس يعصون الله سبحانه وتعالى: يأكلون ويشربون فيمنعهم من ذلك. تُخشى هذه الأعمال الاستفزازية أو المبرمجة التي تعطي رسائل أن الإسلاميين قد جاؤوا ولم يبق للناس في البلاد حرية.

إن الإسلام لا يتدخل في خصوصيات الناس. لا حق لأحد أن يقتحم دكانا أسدلت عليه الستائر ولا نقتحم على الناس بيوتهم أو الاعتداء على خصوصياتهم ولا ينبغي باسم الإسلام أن نعتدي على حريات الناس.

هذا الشهر هو الشهر الذي يحترم فيه الناس بعضهم بعضا وهذا هو الحد الأدنى وأكثر من ذلك أن يتراحم الناس وأن يتصافحوا ويتكافلوا وليس أن نعطي رسائل أننا سنغير المختارات التي تراكمت قرونا بين عشية وضحاها.

لقد أتانا رمضان بخيرات كثيرة ينبغي أن نستفيد منها. ونحن نعيش في هذا الموسم المبارك

فلنتذكر إخوانا لنا في الدين في هذه البلاد لم يتمتعوا بما نتمتع به نحن من خيرات ولنتذكر إخوانا لنا خارج تونس: في سوريا حيث يمر شهر عصيب وأيام عصيبة تمر على إخواننا في سوريا نسأل الله أن يشد أزرهم. ولنتذكر إخوانا لنا في بورما يذبّحون وإخواناً لنا في بنغلادش يسجنون. نحتاج إلى أن نذكر كل إخواننا في صلواتنا ونذكرهم في أعمالنا التطوعية وكما مدّ لنا الآخرون أيديهم خلال عشرات السنين من محنتنا مطلوب منا بدورنا أن نمد أيدينا إلى إخواننا من المعذبين في الأرض ممن يعانون الاضطهاد ونذكر أننا أمة واحدة وأن المؤمن لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا واهدنا إلى سواء السبيل.

اللّهم إن هذه قلوبنا بين إصبعيك الكريمين تقلبها كيف تشاء اللّهم طهرها من الشحناء والبغضاء ومن الشرك والرياء واملأها بمحبتك ونورك والشوق إلى رضاك والأنس بذكرك ومحبة عبادك الصالحين يا رب العالمين.

اللّهم ألف بين عبادك المؤمنين حيث ما كانوا.

اللّهم يا ربنا ابسط يد السلام والعدل على أمة محمد ﷺ.

اللّهم فك أسرانا وفك أسرى المسلمين في فلسطين وفي كل مكان.

اللّهم وفق فكّ قبضة الطغاة والجبارين عن إخواننا في بلاد الشام.

اللّهم انتصر لدينك وأوليائك حيثما كانوا يا رب العالمين.

اللّهم تقبل منا صومنا وصلاتنا وقيامنا وقعودنا وركوعنا وسجودنا واجعلنا من عتقائك عتقاء شهر رمضان يا رب العالمين.

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

(*) نشير أن مراجع الحاشية لم يعتمدها الشيخ في خطبه وهي مجرد لفت انتباه للباحثين والخطباء لمراجعة الآيات على كتب التفسير.

«بدر».. الدروس والعبر[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أيها الإخوة أيها الأبناء نحييكم بخير التحية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصوم عبادة مستترة:

شهر القرآن هو شهر الصيام والله سبحانه وتعالى اختار لهذا الشهر فضائل. ومن فضائله أنه كان الوعاء الذي نزل فيه آخر رسالات السماء. وكما اختار الله من عباده أنبياء ومرسلين فقد اصطفى من الشهور هذا الشهر وخصه بهذه المكرمة. وشهر رمضان هو شهر القرآن وهو أيضاً شهر الجهاد والمجاهدة، مجاهدة النفس حتى تخلص أمرها إلى الله سبحانه وتعالى، لذلك فإنه من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه. والاحتساب هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى. فالعبادات الأخرى ظاهرة كالصلاة والزكاة. والناس يرونك تصلي أو تزكي وتحج.. أما

---

(1) الجمعة 3 أوت 2012.

(2) سورة لقمان، الآية 33، انظر: ابن كثير: 1/ 256، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 14/3، 21/ 138.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/20، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

أن تكون صائما أو غير صائم فهذا لا يستطيع أن يطلع عليه إلا الخالق سبحانه وتعالى لذلك فإن عبادات المسلم هي للمسلم إلا الصوم فإن الله سبحانه وتعالى نسبه له فقال: **«إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»** لأنه عبادة قلبية ومستترة وهو جوهر الدين وهو الإخلاص: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[1].

رمضان شهر المجاهدة:

فجوهر العبادة وجوهر الدين هو إخلاص العمل كله لله سبحانه وتعالى. هذا الشهر هو شهر المجاهدة: مجاهدة النفس، ومجاهدتها هي الطريق لمجاهدة الآفات الأخرى من الأعداء ومن كل أسباب الضعف والانحطاط ولذلك فإنه كما اقترن هذا الشهر بمجاهدة النفس فإنه أيضاً شهر مجاهدة العدوّ وقد اشتهرت فيه واقعة معروفة هي واقعة بدر التي وصفها القرآن الكريم في سورة الأنفال بيوم الفرقان «يوم التقى الجمعان» يوم فرّق الله فيه الحق من الباطل، إنه يوم تاريخي.

معركة بدر التي حصلت في شهر رمضان وفي السابع عشر من هذا الشهر أي في مثل يوم غد حصلت هذه الحركة التي نحن اليوم امتداد لآثارها لذلك سماها المولى ﷻ يوم الفرقان.

معركة بدر الدروس والعبر:

ويوم هجم المسلمون وقف النبي ﷺ يَصُفُّ الصحابة وبعد أن وعظهم وحثهم على الصمود عندها توجه إلى الله سبحانه وتعالى بدعاء معروف وقال: **«اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»**.. لو هلكت تلك العصابة يوم بدر لما بقي إيمان ولا إسلام في هذه الأرض. كانت المعركة صغيرة فيها من جانب المسلمين ثلاث مائة ونيف من المقاتلين وهم في الأصل لم يخرجوا للقتال بل خرجوا لملاقاة عير قريش، خرجوا ضمن حرب اقتصادية ليقطعوا على قريش مواردها الاقتصادية التي كانت تتأتى من رحلة الشتاء والصيف. تتجه الأولى نحو الشام وتتجه الثانية نحو اليمن. ولأن رحلة الشمال تمرّ قريباً من المدينة فقد قرر النبي عليه الصلاة والسلام أن يقطع عنهم هذا المورد وذلك يضعف قريشاً، لأن بعدا من أبعاد الحرب وميداناً من ميادينها هو الحرب الاقتصادية والمسلمون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة سلبت أموالهم وتركت لهم مهمة الالتحاق بمحمد في المدينة ومنعهم من اصطحاب أموالهم وما كان لهم إلا أن اختاروا الله ورسوله وقد جاء في بعضهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾[2]... وقد وردت في شأن صهيب الرومي وقد كسب مالا في مكة فصودر

---

(1) سورة البينة، الآية 5، انظر: ابن كثير: 8/ 456، والطبري 540/24، والقرطبي 144/20، وفي ظلال القرآن 80/8، والتحرير والتنوير 89/8.

(2) سورة التوبة، الآية 111، انظر: ابن كثير: 7/ 332، والطبري 498/14، والقرطبي 266/8، وفي ظلال القرآن 81/4، والتحرير والتنوير 37/11.

ذلك المال بعد أن أخلي سبيله للالتحاق بصاحبه محمد ﷺ فنزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾... فمن الطبيعي وقد شنت عليهم حرب دينية وحرب اقتصادية وسياسية أن يكون العمل بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[1].

قريش هي البادية بالعدوان الاقتصادي والديني والسياسي ولذلك كان من الطبيعي أن يسعى النبي عليه الصلاة والسلام ورئيس الدولة إضعاف قريش اقتصاديا من خلال قطع تجارتها. خرج المسلمون وقد بلغهم أن عير قريش ستمرّ فخرجوا بأسلحة خفيفة ولم يكن معهم إلا ثلاث أو أربع من الفرسان بينما خرجت قريش وقد بلغها أن النبي عليه الصلاة والسلام سيعترض طريقها غير أن أبا سفيان استطاع أن يقود القافلة وأن يتجنب ملاقاة المسلمين ويفلت بقافلته أو ينجو بها. عندها قررت قريش على الرغم من أن قافلتها قد نجت أن تصنع يوما عظيما من أمجادها جمعت فيه كل قواها وخرجت بأكثر من ألف مقاتل وفارس وظنت أن المسألة ستكون مسألة احتفالية لأنها تعلم أن حجم المسلمين محدود وأسلحتهم محدودة وبالتالي قرروا أن يجعلوا من ذلك اليوم يوما فاصلا ينهي الإسلام وينهي هذه الدعوة من جزيرة العرب ويستأصلها. لذلك أخذوا معهم الجواري والخمور والقيان ليعقدوا على إثره احتفالا بالنصر الذي ظنوه أنه سيكون نصراً سهلاً وسيعرضون حفلاً ـ كما كان يقول أبو جهل ـ تسمع به العرب والعجم وكما وصفهم القرآن فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[2] خرجوا بطرا وليس عندهم قيمة يدافعون عنها. ليس عندهم مقصد إنساني.. ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط.

كان من الطبيعي وقد بلغ النبي عليه الصلاة والسلام بإخباريات وبأجهزته الاستعلامية أن القافلة قد فاتت وأن قريشاً قد جمعت كل قواها لملاقاته وأصبح الموقف صعبا وحاسما.

تثبيت مبدإ الشورى:

فوقف ﷺ مع أصحابه وقد فات المقصد الذي خرجوا من أجله وهو الحرب الاقتصادية والظفر بالقافلة فاستشار أصحابه وأعلن مبدأ الشورى وهو النبي عليه الصلاة والسلام الذي تلقى الوحي ومع ذلك طبق قانون الله سبحانه وتعالى [آل عمران: 159] [الشورى: 38] وكانت مواقف المهاجرين واضحة للقتال مع النبي ﷺ. لكنه ما كان يقصد المهاجرين فقط وإنما كان يقصد أساسا الأنصار. لماذا؟ لأن العهد بين النبي وبين الأنصار أن يحموه داخل المدينة وذلك في

---

(1) سورة البقرة، الآية 190، انظر: ابن كثير: 1/ 523، والطبري 3/ 561، والقرطبي 2/ 347، وفي ظلال القرآن 1/ 158، والتحرير والتنوير 2/ 134.

(2) سورة الأنفال، الآية 47، انظر: ابن كثير: 4/ 72، والطبري 13/ 578، والقرطبي 8/ 58، وفي ظلال القرآن 3/ 414، والتحرير والتنوير 10/ 32.

اتفاقية العقبة الثانية التي أسست في هجرة النبي ﷺ مع أصحابه. كانت هذه الاتفاقية بينه وبين ممثلي مدينة يثرب من الأوس والخزرج وقد تمت هذه الاتفاقية سرا ولم يعلم بها المشركون من قريش وبمقتضى هذه الاتفاقية ينتقل اليهم النبي ﷺ ويحموه ولكن داخل المدينة. على حين أن المعركة تدور خارج المدينة. لذلك أصبح الأنصار غير ملزمين بهذه الحرب لأنها خارجة عن الاتفاقية التي وقعها معهم النبي ﷺ. لكن الأنصار برهنوا مرة أخرى على روح عالية من الكرم ومن الاخلاص ومن البيعة لله سبحانه وتعالى ومن الفدائية وقال ممثلو الأوس والخزرج ما خلاصته: «لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى؟ «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن امض ونحن معك» وقالوا له: «نحن أهل لها.. نحن أهل الحرب وستجدنا صادقين عند اللقاء» فشكرهم النبي ﷺ ومضى وهم في منطقة بدر و بها عيون قليلة وبعض النخيل وإلى الآن لا تزال منطقة بدر وإن كانت ممرا في السابق لمن يمضي من مكة إلى المدينة كان يمر حتما ببدر. لكنها الآن أصبحت بعيدة عن الطريق الجديد بحيث يحتاج الإنسان إلى أن يخصها بالزيارة، وهي حتى الآن لا تزال واحة صغيرة حيث صُنِعَ التاريخ الإسلامي وحيث كان مفرق الطريق وحيث كان المنطلق الجديد للإسلام.

ولو أن تلك المعركة خسرها المسلمون لتغير وجه التاريخ ولذلك سمى الله هذه المعركة بالفرقان وسجلت في سورة الأنفال [41 ـ 43] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وكانت مواقف المهاجرين واضحة للقتال مع النبي ﷺ. لكنه ما كان يقصد المهاجرين فقط وإنما كان يقصد أساسا الأنصار. لماذا؟ لأن العهد بين النبي وبين الأنصار أن يحموه داخل المدينة وذلك في اتفاقية العقبة الثانية التي أسست في هجرة النبي ﷺ مع أصحابه. كانت هذه الاتفاقية بينه وبين ممثلي مدينة يثرب من الأوس والخزرج وقد تمت هذه الاتفاقية سرا ولم يعلم بها المشركون من قريش وبمقتضى هذه الاتفاقية ينتقل اليهم النبي ﷺ ويحموه ولكن داخل المدينة. على حين أن المعركة تدور خارج المدينة. لذلك أصبح الأنصار غير ملزمين بهذه الحرب لأنها خارجة عن الاتفاقية التي وقعها معهم النبي ﷺ. لكن الأنصار برهنوا مرة أخرى على روح عالية من الكرم ومن الاخلاص ومن البيعة لله سبحانه وتعالى ومن الفدائية وقال ممثلو الأوس والخزرج ما خلاصته: «لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى؟ «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن امض ونحن معك» وقالوا له: «نحن أهل لها.. نحن أهل الحرب وستجدنا صادقين عند اللقاء» فشكرهم النبي ﷺ ومضى وهم في منطقة بدر و بها عيون قليلة وبعض النخيل وإلى الآن لا تزال منطقة بدر وإن كانت ممرا في السابق لمن يمضي من مكة إلى المدينة كان يمر حتما ببدر. لكنها الآن أصبحت بعيدة عن الطريق الجديد بحيث يحتاج الإنسان إلى أن يخصها بالزيارة، وهي حتى الآن لا تزال واحة صغيرة حيث صُنِعَ التاريخ الإسلامي وحيث كان مفرق الطريق وحيث كان المنطلق الجديد

---

[1] سورة الشورى، الآية: 38، انظر: ابن كثير: 7/ 210، والطبري 454/21، والقرطبي 36/16، وفي ظلال القرآن 3264، والتحرير والتنوير 23/25.

للإسلام. ولو أن تلك المعركة خسرها المسلمون لتغير وجه التاريخ ولذلك سمى الله هذه المعركة بالفرقان وسجلت في سورة الأنفال [41 ـ 43] ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾[1] . . . بما يعني أن المعركة كانت تجري على عين الله سبحانه وتعالى وقد شاركت فيها ملائكة الرحمٰن وشارك فيها جبريل وكانت معركة كونية في الحقيقة شارك فيها البشر والملائكة وانتهت بصمود المسلمين وفدائيتهم وتحولت إلى نصر تاريخي.

معركة بدر استنتاجات:

إن الحضارة الإسلامية وما جاء من تاريخ ومن مدّ إسلامي ومن حضارة كلها أثر من آثار معركة بدر. فهي حَرية بأن تحيَى وأن نتبيّن العبر منها . .

ومن عِبَرِ هذه المعركة أن المعاني هي أهم بكثير من المقدرات المادية، هذه المعركة كانت تصادما واضحا بين قوى المادة المستكبرة من ناحية وبين قوى الروح من ناحية أخرى. وكلما كانت المعركة من هذا القبيل كان النصر فيها لقوى الروح والمعاني: لم يكن خروج أهل مكة يهدف للدفاع عن قيمة من القيم: لا عدل ولا حرية ولا رحمة، كل ما حصل كان بطرا ورئاء الناس واستكبارا في الأرض وإظهارا للغطرسة والعظمة في مواجهة القلة المؤمنة بينما كانت هذه القلة هي رصيد العالم أو ما بقي من خير في العالم. إن عالم القيم كله تجسد في تلك الفئة من عدل وحرية ورحمة وإيمان وتقوى وخلق حسن . . كل ذلك تجسد في ثلاث مائة وسبعة عشر أو ثلاث مائة وعشرين مقاتلا هم في الحقيقة خلاصة رسالات السماء أو ما تبقى من رسالات السماء فكانوا يدافعون عن عالم القيم وعالم الإنسانية وعالم العدالة بينما الآخرون كانوا يدافعون عن الظلم والغطرسة والاستبداد.

في هذه المعركة كان القرآن أيضاً قد تحول في الحقيقة إلى كتائب ولم يبق آيات نظرية تتلى وإنما تحول إلى مشاهد من الفداء ومن البطولة وإلى الأرض يقود المعركة . .

نماذج جهادية:

وكان الصحابة يتسابقون إلى الموت وهم يشعرون أنه ليس بينهم وبين الجنة إلا أن يضرب

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 159، انظر: ابن كثير: 4/ 59 ـ 60، والطبري 380/13، والقرطبي 361/7، وفي ظلال القرآن 403/3، والتحرير والتنوير 550/9 ـ 525.

أحدهم بسهم فينتقل إلى الدار الآخرة لذلك كان أحد المقاتلين وهو عمرو ابن الحمام يستمع إلى النبي ﷺ وهو يحرض المؤمنين على الصمود ويعدهم بالجنة. . كان يأكل تمرات بيده وهو يسمع إلى موعظة النبي ﷺ وعادة تتعطل شهوة الطعام أثناء المعركة وتتعطل كل الغرائز الأخرى لما تصبح الروح في خطر ولكن دلالة ذلك أن الرجل كان مطمئناً. كان يأكل التمرات وهو يستمع إلى موعظة النبي ﷺ والمعركة تدور فما كان منه إلا أن قال: يا رسول الله، أليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونني؟؟ فقال ﷺ: **«ليس بينك وبين الجنة إلا ذاك»** فألقى بتلك التمرات وكأن حفنة التمر ستبعد المسافة بينه وبين الجنة فما صبر وألقى بتلك التمرات ونزل إلى المعركة وحظي بالشهادة.

معركة بدر المقاصد:

كانوا يقاتلون بروح عالية مفعمة بالإيمان والإخلاص والقيم الإنسانية بينما كان الآخرون يقودهم الشيطان وكانوا ممتلئين عجرفة وغطرسة واستعراضا للقوة.

معركة بدر هي أم المعارك حقيقة في تاريخ الإسلام وهي أساس الانتصارات التي حصلت بعدها. كانت تمثل الجهاد الذي هو في الاسلام. والجهاد ليس هو بالغطرسة وإنما هو تحقيق للقيم، قيم العدل وقيم الحرية ومقاومة الظلم والاستبداد. لذلك نرى بعض المشاهد في هذه المعركة ومن بينها مشهد الأسرى، أسرى بدر وهم سبعون من صناديد قريش تم قتلهم في تلك المعركة كما تم أسر العشرات من صناديد قريش. واستشار النبي ﷺ في شأنهم وماذا يمكن أن يفعل بهم. من الصحابة من أمر باجتثاث رؤوسهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم ومنهم من صحابة النبي من أشار بالعفو حتى يشجع ذلك مَن وراءهم، لأن السلم هو الأصل في الإسلام لذلك نرى سياق سورة الأنفال تنتهي عند هذه الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[1]. بحيث هنا تنتهي القصة. إلا أن غاية الجهاد في الإسلام هو أن يستتب العدل والسلم في العالم. والأصل إذن ليس هدر الأرواح وإنما الأصل أن نحافظ عليها لذلك نهى الرسول ﷺ أن تتخذ طيرا شارة لأن الأرواح كلها خلق الله سبحانه وتعالى فما ينبغي أن نهدر حياة إلا لسبب معقول وهو المحافظة على الحياة نفسها ولذلك في أسرى بدر تم العفو عنهم. ومن أجل إطلاق سراحهم وقعت المفاوضة: فمن كان له مال وقعت مفاوضته على ذلك ومن لم يكن له مال ويعرف القراءة والكتابة تمت مفاوضته على أن يعلم عشرة صبيان من المسلمين كتعويض لتحرير نفسه من الأسر لأن الحركة الإسلامية هي حركة تنوير ونشر العدل والعلم.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 60 ـ 61، انظر: ابن كثير: 4/ 80، والطبري 31/14، والقرطبي 35/8، وفي ظلال القرآن 412/3، والتحرير والتنوير 54/10.

لذلك لم يكن الهدف هو القتل أو هدر مزيد من الدماء لأن هذا ضد مقصد الإسلام فالإسلام يريد المحافظة على الحياة وما الجهاد إلا سبيل من سبل المحافظة على الحياة لردع الظلمة والمفسدين ولاستتباب الحق والحرية والسلم في العالم ومعركة بدر من أضخم المعارك في التاريخ من حيث نتائجها ولكن من حيث الخسائر كانت من أقل المعارك بل معارك الإسلام في الجزيرة العربية لم يزد جميعها على خمس مائة ضحية حسب الإحصائيات التاريخية. لأن هناك مبدأ تجنب الإسراف في القتل قال تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾[1] وهذا الإسراف هو خلاف مقاصد الجهاد بل الجهاد هو عمل استثنائي في مواجهة الغطرسة والاستبداد والاستكبار والجبروت وفي هذه الحالة ينبغي الاقتصاد في الدماء وفي الأرواح لأن ذلك هو مقصد الإسلام.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

(1) سورة الإسراء، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 2/ 381، والطبري 439/17، والقرطبي 249/2، وفي ظلال القرآن 18/5، والتحرير والتنوير 91/15.

قال الأستاذ سيد قطب: والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها.

الخطبة الثانية
كيفيات التعامل مع الفرقاء

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا والصلاة والسلام على حبيبنا وشفيعنا وقائد دعوتنا محمد رسول الله ﷺ. اللّهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واتبع هداه إلى يوم الدين.

الجهاد موجهاته، ضوابطه، آدابه:

إن دعوة الإسلام أشاعت السلم فحتى الجهاد في الإسلام هدفه إشاعة السلم والحرية وليس هدراً للحياة حتى لو كانت هذه الحياة حياة نباتية أو حيوانية ولذلك كان النبي ﷺ وكذلك خلفاؤه قادتهم إلى الفتوحات وهم يودعونهم إلى القتال: كان أبو بكر يوصي: لا تقطعوا شجرا، لا تهدموا بناء، لا تنالوا من قسّ آوى إلى كنيسته أو إلى معبد لا تنالوا عسيفا (وهو العامل الذي يشتغل في مصنعه) والآية واضحة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[1] وقد جاء في «التحرير والتنوير» للشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «قتال لقصد الدفاع لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾». اهـ. ولذلك لا مبرر لمقاتلة العالم كما يحصل الآن من قبيل قصف مدينة بأكملها بالطائرات، وللأسف تحصل هذا حتى من حكام يدّعون أنهم مسلمون ويعتبرون أن الشعوب التي يقصفونها هي شعوبهم.

هذا عمل لا علاقة له بالإسلام لأن القتال في الإسلام يتجه إلى المعتدين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي في حال قتالهم لكم دون غيرهم أما إذا خرج عدوك من المعركة فإنه لم يعد هناك

(1) سورة البقرة، الآية: 190، انظر: ابن كثير: 1/ 523، والطبري 3/561، والقرطبي 2/347، وفي ظلال القرآن 1/158، والتحرير والتنوير 2/199.

مبرر لقتاله. أما أن تقصف مدينة أو حيا من الأحياء أو حارة قصفا عشوائيا فهذا لا علاقة له بالجهاد الإسلامي.

فالمقصد من الجهاد هو إذن نشر قيم الحق والعدل والسلم والحرية ولذلك ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1] بمعنى إن اتجهوا إلى المسالمة فينبغي أن تبادلوهم السلام لأن ذلك هو غاية الجهاد.

الحرب أولها الكلام:

أما الجهاد اليوم وعندما نلقي نظرة على الخطاب السياسي في بلادنا اليوم نشعر كأن هناك حرباً قائمة الآن والعرب تقول: الحرب أولها الكلام. أيما شخصان يتخاصمان تكون البداية بالمشافهة وبالكلام الذي ينتهي إلى الصدام. وإذا أردنا أن نتبيّن مسار مجتمع ما فإنه ينبغي أن نترجم خطابه.

ما نلاحظه اليوم من خطاب شريحة واسعة من السياسيين والإعلاميين تجاه حركة النهضة وتجاه الحكومة أن هناك خطاب حرب مشحون بالدماء وبالأرواح المزهقة ونشر للفتنة. ينبغي لذلك أن نحذّر من الكلام ومن عواقبه كما ينبغي أن نعتبر أن الكلام يجب أن يكون مسؤولا فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾[2]، وسديد على وزن فعيل بمعنى مفعول: مسدّد وله هدف ولا داعي للإكثار من الكلام على أهميته وهو محسوم. كما ورد في القرآن: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[3]. ومن عبقرية اللغة العربية أنها جمعت بين الكلَم والكلِم. وكلمه تعني أيضاً جرحه ولذلك ينبغي أن نعتبر الكلام مسؤولا. وإذا أردنا أن نتجه إلى السلم فإن على خطابنا أن يكون خطاب سلم أيضاً.

السلطة والمعارضة يجمعها فضاء الوطن:

نلاحظ اليوم أن خطاب الصحافة عموما هو خطاب حرب.. بينما نحن نفرق بين المعارضة وبين الحرب. فالمعارضة ليست حربا. والديمقراطية نقلت الحرب في الحقيقة من الميادين إلى المجال السياسي مثلما يحصل في الشطرنج حيث تنقل الحرب من ميدان المعارك إلى صور رمزية. فإذا أردنا لمجتمعنا السلم فإنه ينبغي أن نحافظ على خطاب مسؤول، خطاب يدعو إلى

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 61، انظر: ابن كثير: 4/ 83، والطبري 40/14، والقرطبي 39/8، وفي ظلال القرآن 426/3، والتحرير والتنوير 58/10.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 70، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(3) سورة البقرة، الآية: 83، انظر: ابن كثير: 1/ 316، والطبري 293/2، والقرطبي 12/2، وفي ظلال القرآن 58/1، والتحرير والتنوير 582/1.

السلم ويفرق بين المنافس والمعارض السياسي من ناحية وبين المحارب من ناحية أخرى. نحن لسنا في حرب مع مواطنينا. لا أحد ينكر أن هناك سلطة وهناك معارضة وهنالك سقف يجمع الجميع وهو هذا الوطن الذي ينبغي أن نحافظ عليه وأن تؤول معاركنا إلى أن يهدم البيت على رؤوس أصحابه. بعض الناس لا يبالي ويدفع المعركة حتى لو أدت إلى منطق «عليّ وعلى أعدائي». ومنطق: إذا كان إخراج النهضة من السلطة لا يمرّ إلا عبر قطع الطرقات وحرق المصانع وتعطيل الاقتصاد والدعوة إلى التقاتل فليكن ذلك..

هذا في الحقيقة منطق خطير. هذا منطق العاجزين ومنطق غير المسؤولين. ولذلك ينبغي أن نعتبر أنفسنا أكثر مسؤولية ونعتبر أنفسنا «أم الولد» التي تحرص على المحافظة على ولدها في كل الحالات. وشأننا هو المحافظة على بلادنا ووطننا في كل الصور.

وشهر الصيام يجمعنا:

شهر رمضان هذا هو شهر السلام وهو شهر التكامل والمودة وإشاعة روح السلام وروح التضامن والتكافل وبالتالي فإنه من التناقض بمكان أن نكون صائمين وفي الوقت نفسه نمارس التحريض ونمارس نشر البغضاء والعداوة. فالنبي عليه الصلاة والسلام حذّرنا من «الحالقة» وهي التي لا تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين. والحالقة هي البغضاء ولذلك أمرنا ربنا أن نعتصم بحبل الله جميعا وأن لا نتفرق لأن التفرق هو سبب البلاء. وإذا كان صاحبك ليس بعاقل فكن أنت العاقل.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. اللّهم تقبل منا صومنا وصلاتنا وقيامنا وقعودنا وركوعنا وسجودنا واجعلنا من عتقائك عتقاء شهر رمضان يا رب العالمين.

اللّهم يا قوي يا متين يا جبار السماوات والأرضين.

يا من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

يا من هو أغير على عباده من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم.

اللّهم أدرك إخواننا في سوريا بلطفك وعطفك ورحمتك

اللّهم كفكف دماءهم ودموعهم وعجل بنصرهم واقصم ظهر عدوك عدوهم يا رب العالمين. اللّهم انظر بعين لطفك ورحمتك إلى إخواننا في فلسطين وفي بورما وفي بنغلادش وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك.

شدّ اللّهم أزرهم، أكرم جانعهم وأمّن خائفهم وكفكف دماءهم ودموعهم وعجل بنصرهم يا قوي يا متين يا سريع الحساب.

اللّهم عليك بأعدائك أعداء الدين يا رب العالمين.

اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأبلغها مقاصدها وبارك في حكوماتها وأجر الخير العظيم على يدها وردّ كيد أعدائها يا رب العالمين.

اللّهم لا تمتنا حتى نرى كلمتك العليا في كل مكان وكلمة أعدائك هي السفلى.

اللّهم اختم بالصالحات أعمالنا وبارك في أزواجنا وذرياتنا واجعل اللّهم آخر دعواتنا وآخر دنيانا أن نلقاك وأنت راض عنا يا رب العالمين.

وصل اللّهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

فتح مكة: إيحاءات ودروس[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿70﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

موقف قويم من خطأ جسيم:

أيها الإخوة أيها الأبناء نحييكم بخير التحية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عمل المشركون أن يوصلوا خبر فتح مكة إلى قريش إلا أن الله سبحانه وتعالى كشفهم وأبطلت خطة كشف هذا المخطط الذي وضعه النبي ﷺ. إن حاطب ابن أبي بلتعة صحابي لكنه ضعف وهو بشر وقد خطط على أن يرسل امرأة ومعها كتاب إلى قريش لأن النبي ﷺ قد أزمع على مداهمتهم وعلى فتح مكة. وقد كشف الله لنبيه هذه الخطة فأرسل في طلب حاطب ولما سئل لماذا فعل ذلك. وقد استأذن عمر بن الخطاب بقطع رأسه باعتباره قد خان. فقال له النبي ﷺ:

---

(1) الجمعة 10 أوت 2012.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

«**إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». وهذا دلالته عظيمة برحمة النبي ﷺ بأصحابه وأنه على المسلم أن يلتمس الأعذار ولا يفسر سلوك الآخرين بأسوأ نية. كما أن السابقين لهم أحكام ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: 10 ـ 11] من الذين حضروا أيام الشدة، أيام شدة الإسلام والذين كانوا شاهدين وصمدوا.. هؤلاء ينبغي أن يلتمس لهم الأعذار وأن تقدر سابقتهم. و السابقون السابقون. **ولذلك ليس من أنفق من قبل الفتح وقاتل مثل الذي أنفق بعد الفتح** حيث أصبحت بعد الفتح هناك دولة وكل الناس بالتالي يتقربون منها بمن فيهم أصحاب المال والجاه. بينما قبل ذلك عندما كان مصير الإسلام مجهولاً فإن الذين أقبلوا على الإسلام يومئذ كانت لهم ميزات خاصة.

يعلق ابن القيّم على هذه الكلمة التي أدلى بها الرسول في أهل بدر أو أهل السابقة «ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم» بقوله: إن الله يعلم أنهم لا يفعلون إلا الخير، لأن مثلهم لا يخون الأمانة وحاطب لم يخن الأمانة ولكن زلت به الأقدام.

المهم أن النبي ﷺ حريص على أن يقود أكبر جيش عرفته الجزيرة العربية وأخرجته في تاريخها وهو الذي قاده الرسول في فتح مكة وفيه عشرة آلاف مقاتل، ومكة لا عهد لها بمثل هذه الجيوش وأقصى ما جنّد القرشيون لا يربو عن الألف مقاتل. حتى أن أبا سفيان خرج ليلا ونظر في مشهد هذا الجيش وقد أمر ﷺ كل جندي أن يوقد نارا خاصة به حتى ظهرت الصحراء كلها نيرانا.. عندها قال أبو سفيان للعباس وقد كان معه «لقد أمر أمر ابن أخيك» أي أنه سيطر وظهر ولم يعد هنالك احتمال لمقاومته. بحيث كانت هذه الغزوة أو فتح مكة نموذجا للبعد النفسي في الحرب وتعطي أهمية الجانب المعنوي فلم يكن الرسول قد هزم القرشيين بالسيف ولكن هزمهم بالقوة المعنوية حتى انهاروا ولم يفكروا في المقاومة أصلا ما دامت الصحراء كلها تشتعل بالليل.

حتى لا تتلوث مكة بالدماء:

ولما دخلوا كان النبي حريصاً على ألا يراق دم.. ولكن والجيش يتقدم ويدخل مكة وُجدت امراة مقتولة فأوقف ﷺ الجيش كله وسأل: لماذا هذه تُقتل، وما كانت لتقاتل؟ ومبدأ الإسلام واضح: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.. أي في حالة قتالهم لكم. لكن هذه المرأة لماذا تُقتل؟ والنبي عليه الصلاة والسلام بحث بعد ذلك عن أهلها ودفع الدية واسترضاهم. هكذا تحظى النفس البشرية بقيمة عالية ويقف جيش كامل في شأن امراة لماذا قتلت؟ ﴿وَإِذَا

(1) سورة الواقعة، الآية: 10 ـ 11، انظر: ابن كثير: 7/516، والطبري 21/28، والقرطبي 17/199، وفي ظلال القرآن 7/107، والتحرير والتنوير 27/287.

﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[1] وهذه قد قتلت بغير حق.

وعمل ﷺ كل ما يجب عمله من أجل صيانة حفظ الدماء حتى لا تتلوث بها مكة حتى إن بعض الأنصار قال هذا يوم تُنتهك فيه الحرمات، ويقصد بذلك حرمات القريشيين الذين هاجمونا طوال عشر سنوات. فقال له النبي ﷺ: كلا.. بل هذا اليوم تصان فيه الحرمات. وقال كلمته المشهورة لأهل قريش وقد تمكن ﷺ: ما تراني فاعل بكم. قالوا أخ كريم وابن أخ كريم. قال لهم فاذهبوا فأنتم الطلقاء. وقال كلمته: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»**... وفرض منع التجول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾[2].. ثم جاء للأصنام حتى إذا جاء إلى الحرم كان يشير إلى الصنم إشارة فينهار. ذلك أن الأصنام قبل أن تنهار في الواقع فقد انهارت في القلوب. ولا فائدة أن تكسر الأصنام مادامت قائمة في قلوب الناس وفي عقولهم. ولا فائدة أنك تغلق الخمارات مادام الناس مقبلين عليها ولا فائدة من كسر مظاهر الفساد والشرك مادامت راسخة في قلوب الناس ولذلك يظل الوعي مهم جدا والدعوة مهمة جدا حتى تصفى القلوب وتخلص لله سبحانه وتعالى.

فتح مكة دروس وعبر

فتح مكة كان إذناً بتاريخ جديد في جزيرة العرب بعاصمتها مكة إنما هي رمز للوحدة الدينية ورمز التاريخ تاريخ الجزيرة العربية بحيث أصبحت هذه القلعة بيد المسلمين إيذانا بعهد جديد ولذلك سمّي «الفتح» بالألف والام.. وهو الفتح الحقيقي لمكة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾..[3] والفتح هو أن يدخل الناس في دين الله أفواجا.. عندئذ يأتي رد الفعل وهو ليس الانتقام ممن ظلمك ولكن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[4] أي اشكر ربك على هذا الفتح واستغفره لعلك ارتكبت أو لعل بعضا من أصحابك قد ارتكبوا ذنبا كمن قتل امرأة بغير حق أو أخطؤوا خطأ ما.. ولذلك دخل النبي عليه الصلاة والسلام راكباً ناقته مطأطئا رأسه تواضعا لله سبحانه وتعالى. فلم يكن ذلك اليوم يوم فخر وانتقام وإنما كان يوم شكر لله سبحانه وتعالى.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 83، انظر: ابن كثير: 8/ 333، والطبري 24/241، والقرطبي 19/227، وفي ظلال القرآن /430، والتحرير والتنوير 30/140.

(2) سورة النمل، الآية: 18، انظر: ابن كثير: 6/ 183، والطبري 19/439، والقرطبي 13/169، وفي ظلال القرآن 5/377، والتحرير والتنوير 19/240.

(3) سورة النصر، الآيتان: 1 ـ 2، انظر: ابن كثير: 8/ 509، والطبري 24/667، والقرطبي 20/229، وفي ظلال القرآن 8/119، والتحرير والتنوير 30/587.

(4) سورة النصر، الآية: 3، انظر: ابن كثير: 8/ 509، والطبري 24/668، والقرطبي 20/231، وفي ظلال القرآن 8/119، والتحرير والتنوير 30/590.

نسأل الله تعالى أن يحيي في قلوبنا الإيمان وأن يفتح قلوبنا لنور الله سبحانه وتعالى حتى نكون نورا من أنواره في هذه الأرض.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

* * *

الخطبة الثانية
رمضان تراجم أم احتراب؟

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

يعيش المسلمون ذكرى هذا الفتح وينظرون إلى تاريخهم ويتطلعون إلى هذه الأمجاد وإلى هذه المأثورات وإلى هذه العبر ولكنهم من جهة أخرى ينظرون إلى واقعهم فيرونه موزّعاً بين مظاهر وعلامات ومؤشرات إيجابية وصاعدة ولكن تحاول أن تجذبها إلى تحت وتعيقها ظواهر سلبية تتوزع في هذه الأمة.

وبقدر ما مثّل فتح مكة اجتماع صف المؤمنين في مواجهة الأعداء بقدر ما صفوف الأمة اليوم لا تبدو على هذا النحو من الوحدة ومن التماسك.

مشاهد مؤسفة ومتكررة:

أرى ما يحصل في سوريا مظهرا من مظاهر المأساة التي يعيشها المسلمون في بلاد الشام وهي قلعة من قلاع الإسلام التاريخية وقلعة من قلاع الفتح الإسلامي. وفتح تونس كان منطلقه من بلاد الشام ومن سوريا تحديدا انطلقت الجيوش التي جاءت إلى مصر وجاءت إلى شمال إفريقيا ومن بلاد الشام انطلقت الأنوار والخيرات بينما تعيش بلاد الشام اليوم ملحمة وتعيش مأساة حقيقية وتعيش دمارا شاملا. . مسلمون يدعون ذلك يقاتلون مسلمين وهذا المشهد يتكرر في بلاد كثيرة وفي مصر: بالأمس القريب ذبح أكثر من عشرين جنديا وفي الغالب أنهم ذبحوا على يد مسلمين أيضاً أو يدّعون ذلك. وفي بلاد كثيرة أخرى ولا نتحدث عن البلاد التي يذبح فيها المسلمون على يد غير المسلمين مثلما يحصل في بورما ومثلما يحصل في بنقلادش أن حركة إسلامية تضطهد على يد من يزعم أنهم مسلمون. وفي بلادنا أيضاً أنواع من الصراعات تتخذ عناوين شتى وتحرق مقرات «للنهضة» يُعبأ رأي عام بواسطة إعلام غير الموضوعي يعبأ المسلمون

بعضهم ضد بعض ويحرضون بعضهم على بعض بعناوين مختفلة وكأن البلاد ليس فيها رمضان وكأن البلاد ليس فيها إسلام ولا حقّ ولا قانون.

إن العالم الإسلامي يعيش حالة من الفوران وليس حالة من السكينة ولا الهدوء وإنما هي حالة من الفوران والعنصر الإيجابي في هذا الفوران أن الأمة اليوم في حالة صعود وصحوة الإسلام في صعود وأعداء الإسلام في حالة دفاع. هم يدافعون عن المربع الأخير كسيطرتهم على مواقع في المال وأخرى في الإعلام وأخرى في أجهزة القمع الدولية لكن الثابت اليوم أن الإسلام في حالة صعود وأن أعداءه يلتجئون إلى سياسة شمشون: عليّ وعلى أعدائي، وهم مستعدون التدمير البلاد والأهم أن تخرج «النهضة» منها ومن مواقع السلطة فيها. وعلى كل حال هذه ليست مسالك عاقلة لكنها مسالك هوجاء وانفعالية مساعيهم تخيب إن شاء الله ما دامت هذه الأمة تتمسّك بدينها وما دامت على الصراط المستقيم وأمتنا في حالة صعود إن شاء الله.

رمضان خط التقرب:

ويأتي رمضان وتأتي هذه الأيام لتعزز خط الصعود وخط التضامن وخط الجهاد الحقيقي في مقاومة الفوضى والفساد والاستبداد والأخلاق السيئة وفي شهر رمضان لم ينقطع الزور.. والنبي ﷺ نهى عن قول الزور فقال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**».

هناك جانب كبير من الإعلام يندرج ضمن قول الزور من كذب وقلب للحقائق، وكثير من الذين يقومون به هم صائمون ولكن صيامهم لم ينههم عن الفحشاء والمنكر. نحن نعيش في عشر أيام مباركات فيها ليلة القدر وهي خير من ألف شهر والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أتت هذه الأيام وهي العشر الأواخر من شهر رمضان كان يوقظ أهله للصلاة والتهجد وكان يشد المئزر وهو يحزم الحزم الحقيقي لكي لا يفوّت شيئاً من هذه الليالي في الدعاء وفي التهجد وفي القراءة وفي الذكر لعل ليلة القدر تدركه وهي الليلة التي ذكرها الله أنها خير من ألف شهر والعبادة فيها خير من عبادة ثلاث وثمانين سنة، فإذا ما صليت صلاة واحدة فكأنما صليت ثلاثا وثمانين صلاة.

فضل هذه الليلة هو في الحقيقة تتويج لعبادة المسلم الذي عبد الله في هذا الشهر بكل أنواع العبادات. وربّنا سبحانه وتعالى يكرمنا في هذه الليلة. وما أدراك ما ليلة القدر وهي خير من ألف شهر؟ ليس هنالك ما هو محدد لما أن تكون قد شاهدته ولكن إذا أكرمك الله بليلة القدر بحيث يدرك كل واحد قدره ويشعر بلحظة التجلّي وبقربه الكامل من الله سبحانه وتعالى ويشعر أنه قريب من الله وأن قنوات الاتصال بينه وبين خالقه أصبحت مفتوحة ويتجلى الله بأنواره على قلبه ليكون دعاءه مستجابا ولذلك سالت عائشة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر ما أدعو؟ قال: تقولين: اللّهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني».

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى. .

اللّهم لك الحمد حق حمدك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

اللّهم إنا نحمدك بعدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك.

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللّهم هذه قلوبنا بين إصبعيك الكريمين تقلبها كيف تشاء اللّهم طهرها من الشرك والرياء ومن الشحناء والبغضاء ومن إيثار الدنيا، واملأها بمحبتك ونورك والشوق إلى لقائك والأنس بذكرك وحسن الفهم عنك وعظيم الرجاء فيك يا رب العالمين.

اللّهم لا تدع لنا في هذه الأيام المباركة ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته ولا ديناً إلا قضيته ولا عدواً إلا قصمته ولا منافقاً إلا وضعته ولا ولداً حائداً عن طريق الحق إلا هديته.

اللّهم يا ولي الصالحين، يا من يجير ولا يجار عليه، يا من وسع كل شيء رحمة وعلماً اللّهم انصر إخواننا في سوريا وفي فلسطين وفي بورما وفي بنقلادش وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك ويهان دينك اللّهم أدخلهم برحمتك في عبادك الصالحين اللّهم أيدهم بسلطان منك عظيم.

اللّهم أقصم عدوهم وعدوك قصمة لا يقوم بعدها يا رب العالمين.

اللّهم بارك في ثوراتنا. اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأبلغها مقاصدها وبارك في حكوماتها وحقق بها آمال شعوبها وأحبط كيد الكائدين لها يا رب العالمين.

اللّهم لا تجعل منا ولا فينا شقياً ولا محروماً ولا فتاناً ولا مفتوناً.

اللّهم اجعل لنا لسان صدق في الآخرين يا من علّمت آدم الأسماء. يا من آتيت إبراهيم رشداً. اللّهم آتنا رشدنا وألهمنا في كل أمرنا رشدنا واجمع كلمتنا على البر والتقوى وتقبل منا صومنا وصلاتنا وقيامنا وقعودنا وركوعنا وسجودنا واجعلنا من عتقائك عتقاء شهر رمضان.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

فنون الخلاف في التاريخ الإسلامي: هل هي في الفهم أم في المفاهيم؟[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

كيف يتعامل المسلمون مع الأوامر والنواهي ؟ كيف يطبق المسلمون ما أمر الله به ؟ هل يستطيعون اختيار الوقت المناسب فيما يطبقونه اليوم وما يطبقونه غدا؟ والسؤال ليس هل نصلي أو لا نصلي؟ ولكن يمكن أن يتشاوروا كما حصل عند النبيء ﷺ حينما أرسل أصحابه إلى بني النضير يستطلعون، قال لهم: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»**. فأدركتهم صلاة العصر وهم في الطريق فاختلفوا. لكن لم يكن اختلافهم هل نصلي أم لا نصلي وهو أمر مفروغ منه. ولكن اختلفوا حول كيفية تطبيق أمر النبي ﷺ. فبعضهم كان ظاهريا فقال نؤخر صلاة العصر

---

(1) 18 ـ 8 ـ 2012.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

حتى ندرك بني قريظة. والشق الآخر راعى مبدأ المصلحة وعمل بفكرة المقاصد فكان من رأيهم أن الرسول لم يقل: لا تصلوا إلا في بني قريظة وإنما المقصود هو التعجل حتى يدركنا العصر ونحن في بني قريظة. ولذلك قالوا نصلي الآن وقد أدركنا العصر قبل الوصول إلى بني قريظة وعندنا نص يقول: [النساء: 103]. وقد دخل وقت الصلاة إذن فلنصلّ. ولم يختلف الصحابة حول النص ولكن اختلفوا في تأويله. وكل ما أمر به الله ورسوله ليس هو مجالاً للنقاش وإنما تشاوروا في ظروف تطبيقه أو كيف نطبقه: الآن أم غدا، هل توفرت ظروف التطبيق أم لم تتوفر؟ وفي كل الأحوال لا نقاش حول المبدإ. ولا نقاش في ما جاء من عند الله ورسوله. وكل ما جاء من عند الله ورسوله نقول في شأنه سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا فيما قصّرنا فيه. إذن نحن نتشاور في تطبيق النصوص ونتشاور ثانيا لإدارة المصلحة بما ليس فيه نص. والمساحة التي تغطيها النصوص هي مساحة قليلة والمساحة الواسعة لا تغطيها النصوص. وهذه متروكة للتشاور: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[1]. وقد دخل وقت الصلاة إذن فلنصلّ. ولم يختلف الصحابة حول النص ولكن اختلفوا في تأويله. وكل ما أمر به الله ورسوله ليس هو مجالاً للنقاش وإنما تشاوروا في ظروف تطبيقه أو كيف نطبقه: الآن أم غدا، هل توفرت ظروف التطبيق أم لم تتوفر؟ وفي كل الأحوال لا نقاش حول المبدإ. ولا نقاش في ما جاء من عند الله ورسوله. وكل ما جاء من عند الله ورسوله نقول في شأنه سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا فيما قصّرنا فيه. إذن نحن نتشاور في تطبيق النصوص ونتشاور ثانيا لإدارة المصلحة بما ليس فيه نص. والمساحة التي تغطيها النصوص هي مساحة قليلة والمساحة الواسعة لا تغطيها النصوص. وهذه متروكة للتشاور: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2]. هكذا نتشاور فيما هو مصلحة. ففي مسلم عن أنس أن النبي ﷺ مُرَّ بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شيطاً، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم. وهذا الدين لم يأت ليعلمنا كيف نُعَبِّدَ الطرقات أو كيف نبني العمارات أو كيف نسوق السيارات على اليمين أو على اليسار ولا كيف نتصرف في تفاصيل التجارة وتفاصيل السياسة. . هذا كله يدخل في باب ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ولذلك من يأتينا اليوم ويقول الديمقراطية حرام، لماذا حرام وهي من أمور دنيانا. ولم يرد في الشرع هل يكون النظام برلمانياً أم يكون رئاسيا أم هل يكون التشاور في غرفة واحدة أم في غرفتين وما هو النظام الانتخابي. لم ترد هذه التفاصيل لأن عقولنا قابلة أن تدرك هذه المسائل ولذلك اندرجت كل هذه التفاصيل في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. عمّا نبحث في كل هذه المسائل؟ هو بحث عن المصلحة وكذلك قام الدين على المصلحة ولا أحد يقول لنا إن دينكم ناقص فديننا كامل

---

(1) سورة النساء، الآية: 103، انظر: ابن كثير: 2/ 403، والطبري 167/9، والقرطبي 374/5، وفي ظلال القرآن 227/2، والتحرير والتنوير 189/5.

(2) سورة الشورى، الآية: 38، انظر: ابن كثير: 7/ 210، والطبري 454/21، والقرطبي 36/16، وفي ظلال القرآن 326/6، والتحرير والتنوير 23/25.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] وفي ديننا منطقة مغطاة في الشرع وكاملة وفيه منطقة أخرى تبدو غير مغطاة وهي مغطاة بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فيما لا نجد فيه نصا. وربنا سبحانه وتعالى أمرنا أن نتفكر فيه ونتشاور فلا يقرر فرد أو مجموعة صغيرة وإنما نتشاور فإن أصبنا يكون لنا أجران وإن أخطأنا يكون لنا أجر واحد. والله لا يخوّف من الخطإ ما دامت لنا المسؤولية فلا نتردد في أخذ القرار. لنتشاور مع من معنا ونقرر.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

❁ ❁ ❁

(1) سورة المائدة، الآية: 3، انظر: ابن كثير: 3/ 14، والطبري 516/9، والقرطبي 61/6، وفي ظلال القرآن 307/2، والتحرير والتنوير 70/6.

قال العلامة ابن عاشور في مقدمة كتابه 40/1: ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب، وجزئياً في المهم، فقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل، الآية: 89]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المراد بهما إكمال الكليات التي منها: الأمر بالاستنباط والقياس، قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع، والشريعة تمّت بتمامه، ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية.

الخطبة الثانية

من المبادئ المشرقة في الإسلام: لا إكراه في الدين

الحمد لله رب العالمين مالك الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله. اللّهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن بريدة أن النبي ﷺ أرسل أحد قادته فأوصاه وقد أرسله إلى ميدان الجهاد والجهاد كما تعلمون لم يكن هدفه فرض الدين وإنما هدف الجهاد في الإسلام هو الدفاع عن الدين لمواجهة المعتدين وبنا يقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾. . .[1] كان ينبغي أن تكون هذه الآية على مبنى الأمم المتحدة. هناك رفض للعدوان و لا يحل لأحد أن يحتل أرض غيره بالقوة ويحق لكل من تعرض للاحتلال أن يدافع عن نفسه بكل الوسائل.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ يقول الشيخ ابن عاشور: «قتال لقصد الدفاع لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾». اهـ. قاتلوهم ما داموا يقاتلونكم، بمعنى لا تقاتلوهم في كل الأحوال. وقاتلوهم هم وليس أقرباءهم أو أبناء عمومتهم أو نساءهم أو أبناءهم، وإلا فإن القتال يتحول إلى عدوان ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾. . وهذا الذي يسحق مدينة بكاملها ناهيك أن تكون هذه المدينة مسلمة. والذي يسحق مدينة بأسرها سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة ودون تمييز بين مقاتل وغير مقاتل وبين عامل في جيش هذا لا يمكن أن يكون إلا معتدياً.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 190، انظر: ابن كثير: 1/ 523، والطبري 3/561، والقرطبي 2/347، وفي ظلال القرآن 1/158، والتحرير والتنوير 2/199.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ هل أتانا الفاتحون إلى شمال إفريقيا لدفع العدوان؟ نعم هو كذلك لأن الأنظمة التي كانت قائمة يومئذ كانت تمنع حرية الاعتقاد. كان رجال الدين من النصارى وغير النصارى والمجوس ورجال الدين عامة كانوا متحالفين مع الطغاة ويمنعون شعوبهم من أن يستمعوا إلى الدين الجديد فيكون لهم موقف ما بالقبول أو بالرفض. ولذلك لما جاء الإسلام جاء بمبدإ لا إكراه في الدين. وجاء الجهاد في الحقيقة لإقرار هذا المبدإ في العالم ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. ولذلك ورد في سورة الحج هذا المعنى للجهاد من أن الجهاد جاء لحفظ كل العبادات وكل الديانات: جاء لحفظ المساجد والبيع والكنائس ولحفظ الحرية عامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾...[1]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾...[2]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾...[3] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾...[4]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾...[5] والبلاغ لم يكن طريقه ميسورا. كان مغلقا بالطبيعة الطاغوتية ولذلك لم يكن هناك مناص لإقرار مبدإ لا إكراه في الدين إلا بإزالة الطواغيت.

ولكن في عصرنا اليوم وبفضل هذا التقدم العلمي والحمد لله وتقدم وسائل الاتصال: إقرار مبدأ الحرية في العالم هو الذي سمح لأول مرة أن تكون هناك مساجد في كل مكان في العالم وفي كل مدينة وقرية في العالم. وهنالك دعاة إلى الله سبحانه وتعالى وهذا احتاج في الغرب إلى ثورات وإلى قطع مئات من رؤوس الملوك. ولكن في عالم الإسلام ظلت حرية العقيدة مصانة. وإن أقدم المعابد اليهودية هي الآن موجودة في أرض الإسلام. وأقدم الكنائس في العالم هي أيضاً موجودة في أرض الإسلام. وأرض الإسلام صانت أيضاً معابد الوثنيين. ففي العراق هناك الصابئة الذين يعبدون الأشجار والذين يعبدون الشياطين. .وكلها حفظها الإسلام. بما جعل العراق وهو أقدم بيئة حضارية في الإسلام كان متحفا للديانات. هناك ديانات لا وجود لنسخ منها في العالم لكنها موجودة الآن في العراق. ولم يتعرض النصارى لخطر الإبادة في الحقيقة إلا في ظل الغزو الأمريكي. كان العراق في ظل الإسلام متحفا للديانات وشاهدا على أن مبدأ لا

---

(1) سورة المائدة، الآية: 67، انظر: ابن كثير: 3/ 150، والطبري 10/467، والقرطبي 6/242، وفي ظلال القرآن 2/392، والتحرير والتنوير 6/255.

(2) سورة البقرة، الآية: 256، انظر: ابن كثير: 1/ 682، والطبري 5/407، والقرطبي 3/279، وفي ظلال القرآن 1/269، والتحرير والتنوير 3/25.

(3) سورة ق، الآية: 45، انظر: ابن كثير: 7/ 411، والطبري 22/383، والقرطبي 17/26، وفي ظلال القرآن 7/21، والتحرير والتنوير 26/333.

(4) سورة الغاشية، الآية: 22، انظر: ابن كثير: 8/ 388، والطبري 24/389، والقرطبي 20/37، وفي ظلال القرآن 8/30، والتحرير والتنوير 30/306.

(5) سورة الشورى، الآية: 48، انظر: ابن كثير: 7/ 215، والطبري 21/556، والقرطبي 16/47، وفي ظلال القرآن 6/336، والتحرير والتنوير 25/23.

إكراه في الدين هو مبدأ عملي. والنبي ﷺ أرسل أحد قادته للجهاد ـ كما قلت ـ وأوصاه بالوصية التالية: قال له: «إذا حاصرت حصن قوم ـ أي حاصرت المدينة ـ وسألوك أن تنزلهم على حكم الله ورسوله فلا تنزلهم على حكم الله ورسوله، بل أنزلهم على حكمك أنت، فإنك لا تدري هل ستصيب حكم الله أم تخطئه». ونحن في زمننا اليوم كل واحد منا يقول هذا هو حكم الإسلام. كان الأولى أن نقول هذا اجتهادنا. وحكم الله هو الذي نطقت به النصوص الصريحة البينة. فالخمر حرام فهذا حكم الله. الديمقراطية حرام أم حلال؟ هذا حكمنا نحن. هل نصالح الدولة الفلانية أم لا نصالحها كما علاقتنا مع الفرنسيين ومع الأمريكيين؟ كيف تكون علاقتنامعهم. يبقى هذا رهن الاجتهادات البشرية. ولكن من يقرر السلم ومن يقرر الحرب وقرار السلم والحرب لم ينزل من السماء بل هو اجتهاد بشري وهذا الاقتصاد الذي نسلكه إنها هو نظام بشري ولذلك ما ينبغي أن نقول إن هذا حكما إسلاميا. الحكم الإسلامي هو ما نطقت به النصوص الصريحة والبينة. الحلال بين والحرام بين. وما عدا ذلك فهي أحكامنا نحن فإن أصبنا فنحن مأجورون وإن أخطأنا فنحن مأجورون أيضاً إن شاء الله.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللّهم يا نصير المستضعفين يا ولي الصالحين اللّهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

يا من علمت آدم الأسماء كلها اللّهم آتنا رشدنا ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

اللّهم يا قوي ويا متين ويا حي ويا برّ يا رؤوف ويا رحيم اللّهم انظر إلى عبادك المؤمنين في سوريا وفي فلسطين وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك.

اللّهم انظر إليهم بعين لطفك ورحمتك وانصرهم نصراً عزيزاً كفكف دماءهم ودموعهم. اللّهم انتصر لدينك وأوليائك في بلادنا وبلاد المسلمين.

اللّهم بارك في ثورتنا اللّهم بارك في حكومتنا اللّهم أيدها بسلطان منك عظيم وأحبط كيد الكائدين يا رب العالمين لا إله إلا أنت عَزَّ جاهك وعظم كبرياؤك ولا إله غيرك وتقدست أسماؤك يا من في السماء إله وفي الأرض إله وهو على كل شيء قدير. ألق اللّهم علينا هيبة منك ومحبة واملأ قلوبنا بنورك الذي لا يخبو.

اللّهم بارك في أزواجنا وذرياتنا واجعلهم قرة عين لنا وللإسلام والمسلمين يا رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

حرمة المؤمن ومفاسد الإشاعات[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أيها الإخوة أيها الأبناء نحييكم بخير التحية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم. لقد منّ الله علينا بهذا الدين العظيم الذي أكرمنا بأخوة الإسلام وهي الأخوة التي تتكسر على صفحتها كل ألوان الكيد وكل ألوان التحرش وتفريق صفوف المؤمنين.

في المرحلة الأولى من الدعوة ينقسم الناس إلى مؤمن بها وكافر بها، وفي المرحلة الثانية عندما تنتصر الدعوة تتأول الساحة أكثر وتتعقّد ويصبح المؤمنون بالدعوة كافرون بها ولون آخر هم المنافقون.

---

(1) 28 ديسمبر 2012.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

إن سورة البقرة في مقدماتها ـ هي السورة التي نزلت بعد الهجرة إلى المدينة أي بعد الانتصار لدعوة الإسلام وتأسيس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ـ قسمت المجتمع إلى ثلاثة أقسام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿1﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿2﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿3﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿4﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿5﴾﴾.

ثم جاء وصف الكافرين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿5﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿6﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿7﴾﴾.

بحيث تظل الصورة واضحة بيضاء حول المؤمنين وصورة أخرى كالحة في مواجهتها. ولكن هناك صورة ثالثة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿8﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿10﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿11﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿12﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿13﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿14﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿15﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿16﴾﴾.

هل اتضحت الصورة أم لم تتضح؟؟ مازالت لم تتضح بعد لذلك قال تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿17﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿18﴾﴾.

بحيث ضرب الله مثلين لتوضيح الصورة. ويعلق السيد قطب رحمه الله في «الظلال» على هذا التوصيف فيقول: إن صورة المؤمنين صورة واضحة لا تعقيد فيها واكتفى القرآن بآيتين ولكن السورة الأخرى وهي سورة المنافقين تختلط فيها الألوان وقد وضحها الله بثلاث عشر آية وضرب فيها الأمثال، وضربُ الأمثال يعني أن المعنى لم يتضح بالشكل الكافي ولذلك مثل لها بمثلين.وقد ظهر هذا الصنف من الآيات عندما انتصرت الدعوة، هكذا وصفهم القرآن:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿14﴾﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 1 ـ 18، انظر: ابن كثير: 1/ 149 ـ 206، والطبري 1/205 ـ 337، والقرطبي 1/152 ـ 213، وفي ظلال القرآن 1/8 ـ 20، والتحرير والتنوير 1/201 ـ 313.

هذه الشخصية المتقلّبة والمضطربة والتي لا تمتلك الشجاعة بأن تقف إلى جانب المؤمنين وليست لها الشجاعة أيضاً لتقف إلى جانب الأعداء لكنها تتموقع بحسب السوق.

ومما تفعله هذه الفئات عندما تنتصر الدعوات أنها تقوم بحملات إعلامية للتشكيك ولبث الإشاعات الباطلة لتمزيق صفوف المؤمنين ومن ذلك ما وصفته سورة النور [1]: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾. وهي السورة الوحيدة التي كان مبتدؤها بهذا الشكل: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ بينما هذه السورة ذات المائة وأربعة عشر آية كانت كلها «سور» بمعنى الجسم وهي حصن للمؤمنين. وهذه السورة وحدها التي وصفت بهذا الوصف بينما كل أقسام القرآن يمثل كل قسم منه سورة من السور.

«سورة أنزلناها» هناك حذف «هذه سورة»..

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾[1]..

وتحدثت بعد ذلك عن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً.

بحيث الذين يشيعون الريبة في الصف الإسلامي حتى يصبح المؤمنون بعضهم يشك في بعض فنشر الريبة والإشاعات المضللة وسط صفوف المسلمين هذا سنة ثابتة أن أعداء الإسلام يشنون حملات إعلامية لتمزيق الصف المؤمن ولعزله ولضرب بعضه بعضاً. وضرب القرآن الكريم مثلا على ذلك وهو حادث الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾[2].

وحادثة الإفك معروفة وهي في غزوة من غزوات بني المصطلق والنبي ﷺ كان يقترع بين أزواجه وفي كل مرة يحمل هذه أو تلك. وفي هذه الغزوة كانت عائشة رضوان الله تعالى عنها صحبة الجيش. نزلوا بمكان بالليل فلما ارتحلوا صباحا والدنيا لا تزال مظلمة كانت عائشة تقضي حاجة لها فانتحل الركب وتركها. وكان من عادة جيش المسلمين أن يتركوا أحدا يتفقد إن كان هناك شيء قد حصل نسيانه. فالصحابي الذي ترك رأى شبحا لامرأة مغطاة كلها فأناخ لها الجمل وأركبها حتى التحق بالجيش فلما وصل هذا النبأ إلى المنافقين ـ والمنافقون كانوا جزءا من الجيش بقيادة عبد الله ابن أبي بن سلول ـ أشاعوا بأن هناك قصة فساد أو كأن هناك خيانة حصلت أو فساد.

فشق ذلك على النبي ﷺ وشق على أقرب الناس إليه أبي بكر الصديق. وعاشت الجماعة

---

(1) سورة النور، الآية: 1، انظر: ابن كثير: 6/ 5، والطبري 86/19، والقرطبي 158/12، وفي ظلال القرآن 247/5، والتحرير والتنوير 141/18.

(2) سورة النور، الآية: 11، انظر: ابن كثير: 6/ 19، والطبري 115/19، والقرطبي 195/12، وفي ظلال القرآن 256/5، والتحرير والتنوير 169/18.

المسلمة محنة عظيمة طوال أكثر من شهر اعتزل فيها النبي عليه الصلاة والسلام.. اعتزل قرة عينه عائشة إلى أن نزل القرآن الكريم بهذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ (جاء البلاء من داخل الصف وليس من خارجه.. ولكن هوّنوا على أنفسكم) ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾[1].

1. ثم أعطى الدواء بعد ذلك:
2. ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.
3. ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.
4. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.
5. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.
6. ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.
7. ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.
8. ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وتتحول الفاحشة جزءا من نقل الإشاعة ولذلك يقول ربنا ﷻ: إن المشكل فيكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[2] تصغون لهم وتتولون نقل هذه الإشاعات.

نحن اليوم نعيش زمن الإعلام وهو يمثل سلطة عظمى في هذا العصر ومعظمها بأيد ليست صالحة ويا ليت رجال الأعمال عندنا كما يستثمرون بالفنادق يستثمرون أيضاً في الإعلام...

لماذا يستثمر الصهاينة في الإعلام ويربحون أموالا ويسيطرون على عقول الناس وعلى أذواقهم ويسيطرون على الشعوب بكاملها ويفسدون. لكن رجال الأعمال عندنا قل منهم من يتجه ليستثمر (إيجابياً) في هذا القطاع الحيوي.

هذه السلطة الناعمة سلطة الإعلام التي تدخل القلوب بغير استئذان وتوجه أطفالنا ونساءنا بالليل والنهار وتشيع في صفوفنا المنكرات وتشكك المسلم في أخيه المسلم.. وجاء القرآن الكريم لتقديم أدوية وهي أنه لا يمكن للشيطان أن يلج إلا إذا فتحنا له الباب:

---

(1) سورة النور، الآية: 11، انظر: ابن كثير: 6/ 19، والطبري 115/19، والقرطبي 195/12، وفي ظلال القرآن 256/5، والتحرير والتنوير 169/18.

(2) سورة التوبة، الآية: 47، انظر: ابن كثير: 4/ 160، والطبري 278/14، والقرطبي 156/8، وفي ظلال القرآن 34/4، والتحرير والتنوير 216/10.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

ونحن لا ننقل الإشاعات ونظن خيرا بالمسلمين لأن الأصل في المسلم أن يكون محمولا على حسن الظن والمسلم محمول على أن تظن به خيرا. فلا نبث الإشاعات ولا ننقل بمجرد سماعها دون شعور بالمسؤولية. والأصل أن حرمات المسلمين مصانة ولذلك يقول النبي ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»**. والمسلم محمول على حسن الظن وليس على سوء الظن.

ثم أعطى القرآن الكريم بعد ذلك حكما شرعياً وهو أن من يأتي بالإفك ويروّج الإشاعة فله عقاب في الشريعة الإسلامية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[2].

ويصدق ذلك في الرجال وفي النساء على السواء. فالعقاب حد من حدود الله والقذف له ثمانون جلدة وهو لمن يروج للإشاعة دون دليل بأربعة رأوا الفاحشة عياناً ومباشرة ولو أدليت الشهادة من طرف ثلاثة أفراد وتبين أن الرابع غير متأكد مثلا فإن الثلاثة سيجلدون.

والقرآن صان حرمات المسلمين بحد من الحدود وصانها بعقاب شديد توعد به من يروج الإشاعة ولذلك فلا مجال للإشاعة في الصف المسلم لأنه صف محصن يتم فيه ردم الإشاعات.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(1) سورة النور، الآية: 12، انظر: ابن كثير: 6/ 27، والطبري 129/19، والقرطبي 202/12، وفي ظلال القرآن 257/5، والتحرير والتنوير 173/18.

(2) سورة النور، الآية: 23، انظر: ابن كثير: 6/ 31، والطبري 138/19، والقرطبي 209/12، وفي ظلال القرآن 257/5، والتحرير والتنوير 190/18.

الخطبة الثانية
حديث السفينة في سياق المواطنة والتعايش السلمي

الحمد لله رب العالمين، اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الأصل في المجتمع المسلم أن يشيع السلام.. أن تشيع المحبة وأن يشيع الأمن. والمجتمع هو السفينة كما شبهه النبي ﷺ حين قال: **«استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها...»** فالمجتمع كله سفينة وإنه من المطلوب في هذه السفينة أن يسود جو من الأمن والثقة والسلام والمحبة وليس جو الريبة والشك والتعارض. ونقسم السفينة إلى نصفين: قسم من الأعداء وقسم من الأصدقاء فالأمور لا تسير هكذا فالمجتمع المسلم لا بد أن يشيع أجواء الثقة وأجواء السلام وأن يطمئن الناس جميعا أن لهم في هذه السفينة مكانة وأن الآخرين لن يخرجوهم من هذه السفينة ولن يستبدوا بها: إنها سفينة المواطنة. إنه من الضروري أن يشعر الجميع بكونهم أسرة واحدة لأنهم مواطنون، متدينين كانوا أو غير متدينين فهذا هو المجتمع (وهذه طبيعة المجتمعات). وإذا لم يسرك أن في هذا المجتمع قوما غير متدينين فما عليك إلا أن تحسن إليهم وتدعوهم وتترفق بهم وليس أن تعمل على إخراجهم من السفينة وقذفهم في البحر.

محكوم علينا جميعا أن نبحر في هذه السفينة وأن نعتبر كل راكبيها مواطنين وأنه علينا أن نبحث عن فن التعايش. أي كيف نتعايش وكيف نوجد المعادلة التي يطمئن الجميع أن لهم مكانة في هذه السفينة وأن مستقبلهم يندرج ضمن هذه السفينة وما عليهم إلا أن يرعوها وأن يحفظوها وليس أن يتآمروا عليها أو أن يثقبوها. فإن رأيت من يحفر حفرة في هذه السفينة فالأمر يكون كما قال النبي ﷺ: **«فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»**

ولذلك فإن المجتمع الإسلامي يقوم على التعايش السلمي وعلى التضامن وعلى مشاعر المواطنة ووحدة المصير وليس على الانقسام والتنابذ وإشاعة أجواء التصادم.

فالسبيل إلى ذلك في الحديث القدسي الذي رواه البخاري ﷺ، يقول ربنا سبحانه وتعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام: **«وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه»**. بحيث يكون الطريق الصحيح هو أن نبدأ بالفرائض: . . **«وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»**.

يقول محمد إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «تجاذبت الكواكب فاستقرت، ولولا الجاذبية ما بقينا، فالكون كله يقوم على التجاذب، ولو تنافرت الكواكب يتحول المشهد إلى مشهد يوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿1﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿2﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿3﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿4﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿5﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿6﴾﴾[1] بمعنى انتهاء قانون التجاذب ونهاية العالم لكن العالم باق ما بقي هذا التجاذب. فالكواكب تتجاذب بموجبها وسالبها في ذراتها تتجاذب بحيث يبقى المجتمع بقاء روح التجاذب بين الناس ما بقيت روح المحبة والسلم. أما نشر التنافر والتعادي والانقسام فهذا مؤذن بهلاك العمران ولذلك جاءت الشريعة بينكم بما ينطوي على معاني التعايش والتضامن والتحابب والطريق إلى ذلك هو أن نحمل أنفسنا وندعو إلى الله حتى يقوم الناس بالفرائض ثم بعد ذلك يقومون بالنوافل وبقدر ما يتقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى وبقدر ما يخشونه بقدر ما ينعكس ذلك إيجابا على المجتمع.

إن القوانين وحدها مهما تعقدت ومهما دققت لا يمكن أن تصنع العدل بين الناس. والقوانين وحدها لا يمكن أن تصنع المحبة، والعلاقة بين الجار وجاره لا يمكن أن يصنعها القانون وإنه بالإمكان أن تؤذي جارك وأنت محترم للقانون. . ولكن شعور الناس أن الله سبحانه وتعالى معهم وشعور الناس بأن الله سبحانه وتعالى محاسبهم وشعورهم أن الله قريب منهم هو الذي تكون له انعكاسات إيجابية على العلاقة داخل الأسرة بين الزوج وزوجه وعلاقة الأب بابنه وعلاقة الجار بجاره وعلاقة صاحب المصنع بالعامل. . . هكذا يتعايش المجتمع كله كلما كان يراقب الله سبحانه وتعالى.

اللّهم اغفر لنا وارحمنا.

اللّهم أيدنا بسلطان منك عظيم.

ربنا ظلمنا أنفسنا ظلما كبيرا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

---

(1) سورة التكوير، الآية: 1 ـ 6، انظر: ابن كثير: 8/ 328، والطبري 235/24، والقرطبي 227/19، وفي ظلال القرآن 430/7، والتحرير والتنوير 139/30.

اللّهم ياقوي ويا متين ويا من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء اللّهم أدركنا بلطفك ورحمتك وجودك وكرمك وإحسانك.

اللّهم أدرك إخواننا في سوريا وفي فلسطين وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك.

اللّهم أدركهم بلطفك ورحمتك.

اللّهم كفكف دماءهم ودموعهم.

اللّهم أرجعهم إلى ديارهم سالمين منصورين.

اللّهم فكّ عن رقابهم قبضة الغزاة والمحتلين وانتصر لهم يا ر ب العالمين.

الهم بارك في ثورات المسلمين اللّهم أنزلها منازل الصدق والرشد وأَجْرِ الخير العظيم على يدها وأحبط كيد أعدائها.

اللّهم اجعل بلدنا هذا وبلاد المسلمين آمنا مطمئنا.

اللّهم اغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

كونية التواصل ولزوم الانخراط[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أحييكم بتحية الإسلام فالسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

دين الإسلام يتلخص في حقيقة كبرى هي حقيقة التوحيد بأعمق معانيه وأشملها. إنّ وحدة الخالق تعني أيضاً وحدة المخلوقات لأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كله في حالة تواصل وانسجام ووحدة وما يبدو داخله من فوارق ومن تناقضات إنما ذلك لإثراء المشهد وللتعبير عن قيمة أخرى أساسية هي قيمة الحرية. كيف نوفّق بين قيمة التوحيد التي بني عليها الكون وقيمة الحرية التي هي مقتضى من مقتضيات الاستخلاف والتكليف، بمعنى قدرة الإنسان على الفعل وعلى الامتناع. وإذا كانت الوحدة تتحقق في الكون وبشكل قدري والله سبحانه وتعالى

---

(1) الجمعة 22 فيفري 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

خلق الأكوان مسخّرا بعضها لبعض في تجاذب مستمر كما يقول محمد إقبال «تجاذبت الكواكب فاستقرت». هذا التجاذب يحقّق الوحدة. لكن في عالم البشر حيث الحرية فالمطلوب أن تتحقّق الوحدة ولا يكون ذلك إلاّ بإرادة وعزم ومكابدة ومجاهدة وتسامح حتى تتحقق هذه الوحدة في عالم البشر بشكل حرّ وإراديّ ما يتحقّق في عالم الكون بشكل قدريّ. فعالم الملائكة مثلا مبني على الانسجام . وكذا شأن الكون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1]. وكذا شأن الكون ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[2]، والكل في حالة تسبيح وفي خضوع كامل لإرادة الله سبحانه وتعالى. وهل يمكن لنا نحن البشر أن نلتحق بالكون وأن ننسجم مع مبدإ التوحيد ومع مبدإ أنّ الله سبحانه وتعالى خالق لكل شيء وأنّ سعادة الإنسان لا تتحقّق إلاّ بأن ينخرط؟

إنّ مشهد الحج إنّما هو في الحقيقة مشهد كونيّ وعندما نرى الناس يطوفون حول الكعبة فإنّ شأنهم شان الأفلاك وهي تدور حول شموسها أو تجري لمستقر لها.. لكنّ الحجّ عمل إراديّ. كذا ينخرط الإنسان في حركة إراديّة حتّى ينسجم مع حركة الكون. عندها يستحقّ الإنسان جزاء وشكورا كما يستحقّ الرّحمة من الله والعون منه والجنة والثناء.. بينما عالم الأكوان كعالم الملائكة: كله يجري لمستقرّ، كلّه يسبح، كلّه يطيع الله سبحانه وتعالى ويحقّق الوحدة الكونيّة، لكن بشكل قدريّ تكوينيّ. لذلك تحدث العلماء عن إرادتين: إرادة تكوينية وإرادة تشريعية.. أجسامنا هي الأخرى مندمجة ومنخرطة ضمن الإرادة التكوينية؛ لسنا نحن الذين نحرك قلوبنا ولسنا نحن الذين نُجري الدم في عروقنا فجسمنا منخرط في الإرادة التكوينية الإلهية لأنّنا رُكّبنا من عنصرين أساسيين: عنصر جسمي وهو جزء من الإرادة الكونية وعنصر إرادي عقلي وهو خاضع لإرادتنا وهو مناط الجزاء والعقاب. نحتاج إلى أن نؤكد باستمرار على هذه الأمّة التي بنيت عقيدتها على التوحيد. إنها في حاجة إلى جهد كبير حتى تتحقق الوحدة الاجتماعية، لأن التوحيد هو في جانب منه عقيدة من أنّ الله سبحانه وتعالى هو الآمر الناهي المتصرف، ومن جهة أخرى اجتماعية و﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾[3] و﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾[4] وأكثر من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا

---

(1) سورة التحريم، الآية: 6، انظر: ابن كثير: 8/ 168، والطبري 23/491، والقرطبي 18/194، وفي ظلال القرآن 3/442، والتحرير والتنوير 28/345.

(2) سورة الإسراء، الآية: 44، انظر: ابن كثير: 5/ 78، والطبري 17/456، والقرطبي 15/159، وفي ظلال القرآن 4/185، والتحرير والتنوير 15/114.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 92، انظر: ابن كثير: 5/ 371، والطبري 18/523، والقرطبي 11/338، وفي ظلال القرآن 4/233، والتحرير والتنوير 17/141.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 52، انظر: ابن كثير: 5/ 477، والطبري 12/406، والقرطبي 12/129، وفي ظلال القرآن 5/220، والتحرير والتنوير 18/72.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ﴾[1]. وكل العالم خلق ليتعارف وليتجاذب لا ليتنافر. فكلّ ما يؤدي إلى الانسجام والتآلف والتعارف والتعاون إنما يندرج ضمن ما يحب الله سبحانه وتعالى وقد خلقنا لنتعارف. ومن معاني التعارف هو تبادل المعرفة والمعرفة ليست المعلومات فقط وإنما المقصود بها أيضاً تبادل الوذ وتبادل الحب وتبادل التعاون والنفع.. كل ذلك يدخل ضمن ما من أجله خلقنا.

فالمجتمعات البشرية اليوم على تقدمها العلمي والتقني الكبير لا تزال تشهد تخلّفا في عالم القيم والأفكار والإيديولوجيات التي في معظمها تؤكّد مبدأ التناقض ومبدأ الصراع والقوة بحيث أصبح الحقّ في أفواه المدافع وأصبح القويّ هو صاحب الحقّ وهذا لا يؤدي إلاّ إلى انفراط الكون. ما دام في الناس أرصدة من الإيمان سايرت الأكوان وأما إذا خوى الكأس من الإيمان وتحول العالم إلى صراع ومواجهات فلا يبقى هناك مبرر لبقاء هذا الكون.. عندها تدخل معاني ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝1 وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝2 وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝3 وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝4﴾[2]. (بمعنى أن عالم التزاوج والتلاقح الذي هو قائم على الانسجام يضمحلّ باضمحلال التلاقح بين النباتات والحيوانات في حالة من حالات الانفراط). ولذلك فالمطلوب دينيًا أن نتحقّق بتوحيد الله سبحانه وتعالى فلا نخشى إلاّ إياه ولا نعبد إلاّ إياه ولا نخضع إلاّ له سبحانه وتعالى ولا نشرك به شيئاً لأنّه أغنى الشركاء عن الشرك. فهي سماحة نحقّقها في عالم الدين والسياسة. فعن عبادة بن الصامت قال: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله: أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله وتصديق به وجهاد في سبيله؛ قال: أريد أهوَن من ذلك يا رسول الله، قال: السماحة والصبر» رواه أحمد. والمطلوب هنا أن تكون طلق المحيا، سمحا مع الناس. والسّماحة ـ أيها الإخوة الكرام ـ ليست أن تتنازل عن شيء من حقك للآخرين وليس أن تعطيهم ما ليس لهم وإنّما قبل ذلك أن تعترف بالآخرين وبأنّ لهم حقوقا. لذلك اعترف الإسلام بحقوق الناس في اختيار ما يشاؤون. بحيث يظلّ هذا الاعتراف مبدئيًا: لا إكراه في الدين. وأنّ للناس حقًّا في اختيار ما شاؤوا من عقائد.. وإذا كان الدين وهو أغلى شيء وفيه الحرية أن تتدين أو لا تتدين فمن باب أولى وأحرى أن تكون الحرية في السياسة كأن تنتمي لهذا الحزب أو لذاك أو تنتمي لهذه الجمعية أو لتلك. فالإنسان خلق مسؤولاً حرًا. لذلك لن تتحقق الوحدة إلا على أساس التسامح. تسامح يبدأ بالاعتراف بحقوق الآخرين في معتقداتهم ودياناتهم. لذلك استقبل الرسول عليه الصلاة والسلام في مسجده نصارى نجران، بل فرش لهم رداءه وأحسن إليهم واستضافهم في المسجد نفسه. وقد أهدى له حاكم مصر آنذاك جارية وقال ﷺ: **«أوصيكم بالقبط خيراً فإن فيهم نسَباً**

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13، انظر: ابن كثير: 7/ 385، والطبري 309/22، والقرطبي 340/16، وفي ظلال القرآن 3/7، والتحرير والتنوير 258/26.

(2) سورة التكوير، الآية: 1 ـ 6، انظر: ابن كثير: 8/ 328، والطبري 235/24، والقرطبي 227/19، وفي ظلال القرآن 430/7، والتحرير والتنوير 139/30.

وصهراً». والمصاهرة هي الأخرى مظهر من مظاهر الانفتاح والسماحة.

إحسان وزيادة:

إعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه هو أيضاً سماحة. ولا يكتفي الإسلام بإعطاء الحقّ بل يزيد عليه قليلا لذلك قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1]. نعطي العامل أجره والمطلوب منك زيادة بقدر ما في نفسك من أريحيّة ولا تطفف عليه لذلك قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[2]. بحيث إذا تعلّق الأمر بالواجب يقصّر وإذا تعلق الأمر بالحق عندها يطالب بالزّيادة في حقه. لذلك وصف ﷺ الإسلام بأنه دين السماحة وأنّها سنوا الحستى الحنيفيّة السمحة. لن تتحقق الوحدة المطلوبة في كل عمل إلاّ بقدر ما نؤدّي حقوق الناس ونتسامح ونتضافر معهم ونعترف بأخطائنا. أمّا الكبر وغمط حقوق الناس، فهذا لا يؤدّي إلى السماحة ولكن يؤدّي إلى الأنانيّة والانطواء على النفس في حين أن المطلوب أن ينجز كلّ منا خطوة باتجاه الآخرين. لذلك يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»، أي من استطاع أن يخرج عن ذاته قليلا أمّا من يظل سجينا في أنانيته فهو خاضع لصوت الشيطان بينما يشعر المؤمن دائما بالتقصير في حقّ ربه وفي حقّ إخوانه ويلتمس حسنة أو عذرا للآخرين وذلك ساعة الخصام على وجه الخصوص. لو قلّبت الصفحات الماضية لوجدت في رصيده إحسانا ومزايا كثيرة. هكذا في لحظة الغضب ينبغي أن نتذكر مناطق الخير والله يذكرنا في القرآن الكريم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ. . .﴾[3] ولنتذكر فضائل الله علينا في لحظات الشدّة وفي لحظة الغضب مع إخواننا نتذكر مواطن إحسانهم وماذا فعلوا معنا. . نحن أمّة نحمل مبدأ التغافر فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يستغفر في اليوم مائة مرة وأكثر من ذلك. والاستغفار هو عودة الانسان إلى نفسه بكونه أذنب وقصّر وأخطأ وأحياناً ننظر إلى شوارعنا فنشعر كأنّ الإسلام لم يمر بهذه البلاد ونرى السواق على سبيل المثال يسب بعضهم بعضاً من وراء زجاج السيارات ويتبادلون الشتائم بينما المطلوب من المسلم أن يكون طلقاً «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**»، على خلاف ما نراه من وجوه مقطبة وحالة مستنفرة. فما ضرّ لو استغفر هذا الشخص مرّات ومرّات وراجع نفسه بأنّه خطّاء والتمس عذرا

---

(1) سورة يونس، الآية: 26، انظر: ابن كثير: 4/ 262، والطبري 62/15، والقرطبي 330/8، وفي ظلال القرآن 139/4، والتحرير والتنوير 145/11.

(2) سورة المطففين، الآيات: 1 ـ 3، انظر: ابن كثير: 8/ 346، والطبري 277/24، والقرطبي 250/19، وفي ظلال القرآن 484/7، والتحرير والتنوير 187/30.

(3) سورة الأنفال، الآية: 26، انظر: ابن كثير: 4/ 40، والطبري 476/13، والقرطبي /227، وفي ظلال القرآن 394/7، والتحرير والتنوير 327/9.

للآخرين.. ولكن بخلاف ذلك تجتاح مجتمعنا موجات من المادّية.

الاكتفاء ومغالبة الحاجيات:

كثرت اليوم الحاجات المستحدثة بما يجعل طموحاتنا إلى الرّفاهة لا يحقّقها دخلنا: كيف نسدد الباقي؟ نسدده بالمسارعة إلى الاقتراض سواء كان من البنوك أو من الأصحاب. ومَن دخل هذه الدائرة تعسّر عليه الخروج منها. والأولى العمل بمقولة «على قدر الكساء أمد رجلي» وأمتنع عن الاقتراض فالدين همّ بالليل وذلّ بالنهار. لذلك نحتاج إلى لجم شهواتنا ونقلل من مطالب الدنيا حتى تكون مصاريفنا أقلّ من دخلنا ويكون لنا شيء من الادخار. من المتأكّد أنّ هناك جانباً كبيراً من المصاريف ليست ضرورية من مشروبات وأنواع من المقتنيات في بيوتنا كلها زائدة. ونعاني من فتنة الاستهلاك بحكم الدّعاية أحياناً فالفرد منا يتجه إلى السوق ليجد نفسه يبذل ضعف ما كان عازماً على صرفه.

فلنحدّد حاجياتنا مسبقاً بعزيمة راسخة ونلتزم بذلك مهما تعدّدت المعروضات والمغريات ولا نضيف شيئاً عمّا كنا عزمنا على شرائه بل ربما ننقص منه إن أمكن، لأنّه إذا انشغل قلب الإنسان بهموم الدنيا فإنّه ينقم على الآخرين ويشعر بالغبن ويقلّ في نفسه الشّعور بالمحبة إزاء إخوانه وهكذا ندخل في عالم الصراع.. نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجعلنا من عباده الصّالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه...

* * *

الخطبة الثانية
«عام الجماعة» وضرورة التوافق

الحمد لله رب العالمين مالك الملك يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد إمام المرسلين. اللّهم صلّ عليه كثيرا، اللّهم صل عليه بكرة وأصيلا، اللّهم صل عليه صلاة ترضى بها عنا يا رب العالمين.

في التاريخ الإسلامي سمّيت سنة أربعين «عام الجماعة» وذلك بعد فتنة الصراع بين علي ومعاوية ﷺ، صراعاً على السلطة. هذا يعطينا درسا في أنّ الصّحابة الكرام بشر من الناس يخطئون ويصيبون ولكنهم في النهاية يؤوبون إلى الحقّ. فالمسلمون بعد صراع دام طويلا توصلوا إلى «عام الجماعة» وهو العام الذي سلم فيه الإمام الحسن بالخلافة إلى الأمويين. ورغم أنّ الحسن وهو أفضل من معاوية ولا شك، والحسين أفضل من يزيد بلا شكّ؛ وسنّ مبدأ الشيعة، شيعة علي، وهم الذين اعتبروا الإمام المعينّ الموصى له من الله هو علي بن أبي طالب. ولذلك فإن سائر الأئمة الآخرين: أبو بكر وعمر وعثمان هم مغتصِبون للسلطة.. وهذا شرخ خطير في التاريخ الإسلامي.. لأنّنا عوض أن نقرأ تاريخنا قراءة تحقّق الوحدة والجمع نقرؤه قراءة تجذّر القطيعة إلى يوم الدين. لأنّه حسب القراءة الشيعيّة مطلوب من المسلم ـ كي يكون مسلما جيّدا ـ أن يلعن أبا بكر وعمر وعلي وعائشة ومعظم الصّحابة الذين عملوا معهم. وهذا لا يمكن أن يحصل بأي حال من الأحوال. ولا يمكن أن نجمع الأمّة على لعن أوّلها. يقول ﷺ: **«من علامات الساعة أن يلعن آخر الأمة أولها»** كشأن أهل النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[1]. إذن نحن لم نتوحد على الجيل الأول من المسلمين فكيف سنتوحد؟ ولذلك فإنّه مطلوب من الجيل الأوّل من كل جماعة أن يكون عامل وحدة وليس عامل تفريق.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 38، انظر: ابن كثير: 3/ 410، والطبري 415/12، والقرطبي 204/7، وفي ظلال القرآن 222/3، والتحرير والتنوير 111/8.

ما حكم إمامة المفضول مع وجود الأفضل؟

الإمام زيد بن علي خرج من هذا الخلاف بمبدإ جميل في الحياة السياسية حين قال بإمامة المفضول مع وجود الأفضل. وهو يقول بأنّ عليًا أفضل من أبي بكر وعمر ولكن إمامة أبي بكر وعمر صحيحة لأنها كانت إمامة عن بيعة وعن اختيار المسلمين وهو الأصل إذ الأمة هي صاحبة السّلطة ما دامت الأمّة اختارت زيدا أو عمر فهو «الإمام». وقال يمكن أن نعتقد أنّ عليا أفضل أو أن أبا بكر أفضل.. ولكن يجب أن نعتقد جميعا أنهم أئمة أبرار ومقبولون. ومن مبادئ الوحدة أن نقول هؤلاء كلّهم إخوة. وهنا نطرح السؤال: هل يمكن أن نولي المفضول مع وجود الأفضل؟ يمكن ذلك رعاية لمصلحة. وإذا قلنا هذا المفضول يتمتّع بعصبيّة وبأنصار كثيرين وأنّنا إذا لم نضعه في السلطة فسيؤدّي ذلك إلى فتنة. إذا كان ذلك كذلك فلا مانع من القبول به لأنّ عالم السياسة يقوم على المصلحة ويحقّق وحدة المسلمين. وكلّ ما يحقّق وحدتهم فهو خير. وعلى الرّغم من أنّ الخلافة انتقلت من الفاضل إلى المفضول ومن الحسن بن علي إلى معاوية وعلى الرغم من أن الحسن أفضل إلاّ أن إمامة معاوية حقّقت وحدة الجماعة.. فليكن ذلك. وسمّي ذلك العام «بعام الجماعة» والنبي عليه الصلاة والسلام كان أثنى على الحسن وقال: «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين». وجمع الله به الأمة رغم أن ما اجتمعت عليه ليس بالأفضل لكن في المحصّلة ما حقق وحدة المسلمين كان خيرا لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام حذّرنا من سوء ذات البين فقال: «إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة» قال الترمذي: إنها تحلق الدين.

ونجوْنا من الفتن..

نحن في هذه الأيام ـ والحمد لله ـ نشهد وحدة الجماعة التي تعرّضت للتهديد. لكنّ الله سبحانه وتعالى سلّم وكشفت الأحداث عن معادن ثمينة من بين إخواننا ممّن فوّتوا على خصوم الثورة فرصة ضرب أبناء الثورة وأبناء الحركة بعضهم ببعض جزى الله إخواننا الذين كان لهم كل الإسهام وهم يتجاوزون أنفسهم ولم تغرّهم الإغراءات من حولهم لتحوّلهم إلى أسطورة وقد حجزهم دينهم عن المشي في الفتنة ولو خطوة واحدة فالحمد لله رب العالمين على فضله.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصّالحين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا اللّهم بارك في وطننا هذا وفي أوطان المسلمين واجعله رخاء سخاء كريما موحد الصف يا رب العالمين، اللّهم اجعلنا رحمة للمؤمنين، اللّهم اجعلنا نموذجا خيّرا للصّالحين ولا تجعلنا فتنة يا رب العالمين، اللّهمّ أعل بنا كلمة الحقّ والدين، اللّهم وفقنا لما تحب وترضى وبارك في إخواننا المظلومين في كل مكان، اللّهم فكّ أسرانا في فلسطين وثبّت المسلمين في سوريا وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك ويسّر لهم

أمورهم واجعل لهم ولنا مخرجا من ضيقهم يا رب العالمين وبارك اللّهم في أزواجنا وذرّياتنا واغفر لنا ما قدّمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنّا وما أنت أعلم به منّا أنت الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وأنت على كل شيء قدير، اهدنا لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك فإنّك تهدي من تشاء إلى صراطك المستقيم وولّنا اللّهم خيارنا وأعنهم على ما أوليتهم عليه يا أرحم الراحمين وصلّ اللّهم وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

* * *

خشية الله بين الإدراك والممارسة[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿57﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿58﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿59﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿60﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿61﴾﴾[4].

هذا وصف للمؤمنين الذين هم من خشية ربّهم مشفقون. سألت التلميذة النجيبة في مدرسة النبوة الفتاة عائشة أمّنا رضوان الله تعالى عنها عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ فقالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»**.

---

(1) الجمعة 1 مارس 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(4) سورة المؤمنون، الآيات: 57 ـ 61، انظر: ابن كثير: 5/ 480، والطبري 44/19، والقرطبي 131/12، وفي ظلال القرآن 236/5، والتحرير والتنوير 76/18.

ترى مِمَّ يخافون؟ ومِمَّ يرتعدون؟ يغمرهم هذا الشعور خشية أن ترد أعمالهم على وجوههم. لأنّ أوّل من تستعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة أصناف من الناس وهم من الذين يقومون بطاعات ولم يقوموا بمعاصي: نراهم يقرؤون القرآن ويجاهدون وينفقون الأموال الطائلة. لكن حين يُسأل كلّ واحد منهم لم تقرأ القرآن؟ يتبيّن من جوابه أنّه قرأ القرآن ليقال إنّه قارئ. والآخر الذي جاهد إنّما فعل ذلك ليقال أيضاً إنّه شجاع والآخر الذي أنفق إنما فعل ذلك ليقال إنه سخي كريم. وهو حريص على ذلك كأن يُشهر تبرّعه أو يُنشر في الجرائد.. وإلاّ فما قيمة تبرّعه إن لم يُنشر ذلك في صحيفة من الصحف.. هؤلاء جميعا هم أوّل من تستعر بهم النار يوم القيامة وذاك ما ورد تفسير ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، لكن ما هي النتيجة؟ إنها ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[1] لِم ذلك؟ ما السبب؟ من الواضح أنّ العبادة لا تقبل إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن تكون مسنونة على طريقة الإسلام وعلى طريقة رسول الله ﷺ. وملخّص الشرط الأوّل أن تكون خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾...[2].

والشرط الثاني: أن تكون مسنونة على منهج صحيح لا على نحو رعواني من قبيل **(ميمونة تعرف ربي وربي يعرف ميمونة)**. فالرسول ﷺ يقول: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»** ويبيّن لنا كيف نحُجّ وكيف نصوم وكيف نزكّي. فليس المطلوب أن نصلّي ونصوم كيفما اتّفق وإنّما لا بدّ أن نقوم بذلك بإخلاص، لأنّ الله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك.

فلنحرص على أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[3]. لذلك بقدر ما تكون العبادة خفيّة لا يحرص صاحبها على إعلانها بقدر ما تكون مقبولة بحيث يبقى عنصر الإخلاص أمرا متحتّما.. وكذا شأن العلم، وذاك معنى الشهادتين في الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فالعبادة يجب أن تكون خالصة لله وأن تكون على طريقة رسول الله ﷺ. لذلك لابد من إخلاص ولا بد من علم لأنّ العبادة لا يحقّ فيها الجهل وإنما يكون فيها إخلاص القلب ومنهاج صحيح وعلم يبيّن لك ما هو الحلال وما هو الحرام وما هي الأركان وما هي الواجبات. لذلك لمّا سألت أمّنا عائشة ﵂ بقولها: أهم الذين

---

(1) سورة الغاشية، الآيات: 1 ـ 4، انظر: ابن كثير: 8/ 384، والطبري 24/381، والقرطبي 20/25، وفي ظلال القرآن 8/11، والتحرير والتنوير 30/293.

(2) سورة البينة، آية: 5، انظر: ابن كثير: 8/ 456، والطبري 24/540، والقرطبي 5/180، وفي ظلال القرآن 8/76، والتحرير والتنوير 30/468.

(3) سورة الإنسان، آية: 9، انظر: ابن كثير: 8/ 298، والطبري 24/95، والقرطبي 19/127، وفي ظلال القرآن 7/415، والتحرير والتنوير 29/385.

يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: «لا»، كما تقدم. هذه الطائفة إمّا أن تكون قد خانها العلم ولم تكن على طريقة رسول الله أو خانها الإخلاص فلم تكن خالصة لوجه الله سبحانه. لذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1]. خشية الله سبحانه هي رأس العلم والتقوى وهي أعلى قيمة من قيم الإسلام وهي الشعور الذي يملأ القلب بحضور الله في حياتنا: أن يكون الله حاضرا في حياتنا وأن نتوقع الانتقال إلى الدار الآخرة كل لحظة وأنّنا سنحاسب وأنّ كلّ عمل من أعمالنا يمكن أن يكون هو الأخير وإنّما الأعمال بخواتمها. يقول ﷺ: **«إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»**. كمن أدركه الموت وهو في لحظة زنا أو شرب خمر أو تعدّ على أموال الناس أو النظر إلى ما حرّم الله سبحانه وتعالى ويدركه الموت وهو على تلك الحالة.. بحيث تظلّ الأمور دائما بخواتيمها والمحاسبة تكون على النّية **«وإنّما الأعمال بالنيات»**. فقد كان يعمل بعمل أهل الجنة، لكنّ قلبه كان غير متّجه إلى الله سبحانه وتعالى لذلك كان ينبغي أن نحرص على أعمال القلوب أي النوايا ودرجات الإخلاص أوّلا، ثم يأتي العلم ثانيا كأن يكون أمرنا مبنيا على منهاج قرآني نبويّ صحيح وأن نكون في كل الأحوال في خشية الله سبحانه وتعالى.

هناك بعض المتصوّفة من يعتمد كلمات ليست منضبطة بضوابط الشرع، كلمات من قبيل «الأحوال»، غير أنّ هذه الأحوال يجب أن تُضبط بالشرائع. وهم ينسبون مقولة لإحدى العابدات «اللّهم إن كنت أعبدك طمعا في جنّتك فلا تدخلنيها وإن كنت لا أعصيك خوفا من نارك فأدخلني إليها». هذا كلام غير منضبط.. وهذا معناه أن يا ربي أنّي لا أعبدك خوفا منك وإنما حبا فيك. وهنا يُطرح السؤال: هل نعبد الله خوفا أو حبا؟ نحن نعبده خوفا وحبا معا. لماذا نصنع تناقضا بين الحب والخوف؟ والعابد على الدّوام يحب ربه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165]. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾...[2].

معنى ذلك أن المؤمن يحب الله لكن هل يمكن للمؤمن أن يحب غير الله؟ نعم نحن نحبّ أزواجنا وأبناءنا.. نحن نحب المال، هذا أمر جائز، لكن يجب أن يكون حبّنا لله أعلى مرتبة من ذلك بحيث إذا وجدنا أنفسنا مختارين بين حب الله وحب المال فنحن نؤثر محبة الله. وكذلك إذا وجدنا أنفسنا مختارين بين محبة الله وبين التضحية بأنفسنا وأموالنا وأولادنا... فإننا نضحي بكل شيء في سبيل الله. والكافر هل تجوز لنا محبته أم لا تجوز؟ نعم إنّ محبة الكافر جائزة وإذا كانت

---

(1) سورة فاطر، آية: 28، انظر: ابن كثير: 6/ 545، والطبري 20/461، والقرطبي 14/341، وفي ظلال القرآن 6/149، والتحرير والتنوير 22/304.

(2) سورة التوبة، آية: 24، انظر: ابن كثير: 4/ 121، والطبري 14/177، والقرطبي 8/94، وفي ظلال القرآن 3/468، والتحرير والتنوير 10/152.

على سبيل المثال زوجتك كافرة أو نصرانية هل تحبها أو لا تحبها؟ وهل من المعقول أن لا يحب أحد زوجته؟ جائز لنا أن نتزوج بغير المسلمات لكن هل نحبها أم لا؟ نعم هي كتابية نحبها. غير أنه لا ينبغي أن تكون هذه المحبة على حساب الإسلام وشرائع الإسلام وليست على حساب محبة الله ورسوله بحيث هذه هي المقارنة: أن تكون محبتنا لله ولرسوله أعلى من كلّ محبة أخرى بما يعني أننا نحب المال، نحب الأزواج نحب الدنيا نحب حتّى الكافر غير المعادي للإسلام والله تعالى يقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[1]. إذن يمكن أن نحب غير المسلم إن لم يكن محارباً للإسلام، وهل كل الكفّار محاربون للإسلام؟ يوجد من الكفّار من لم يسمع شيئاً عن الإسلام ممّن يعيشون مثلاً في أغوار الصين أو الهند أو عديد الأماكن الأخرى. هؤلاء لا يعرفون الإسلام أصلاً ولا يسمعون عنه شيئاً هل نعتبرهم أعداءً أم غير أعداء؟ هم طبعاً ليسوا أعداءً بل هناك من الكفّار من أشاد بالإسلام وأظهر محاسنه ومزاياه وعرّف به وأشاد بخصاله من مستشرقين وعلماء. هؤلاء ليسوا أعداءً. والكافر إذا مرّ من مرحلة الكفر إلى الإسلام فما هي الخطوات التي ينبغي إنجازها كي يتحوّل إلى صديق للإسلام؟ من الصعب جدًّا أن يتحول مباشرة من عدوّ للإسلام إلى صديق له، هناك مراحل لا بد من اجتيازها كأن يصبح محبًّا للمسلمين صديقاً لهم وفي مرحلة اخرى يقترب شيئاً فشيئاً حتى يعتنق الإسلام. ولا ينتقل الإنسان عادة من النقيض إلى النقيض. هناك خطوات وسطى لا بد من تخطيها بحيث إذا استطعنا أن نقنع غير المسلمين أن يتحوّلوا إلى أصدقاء فتلك هي خطوة أولى نحو الإسلام لأنّ الانتقال في النّفس البشرية يمرّ على درجات تمرّ به من العدوّ إلى الصّديق إلى الأخ..

فالمسلمون يخشون الله. وإذا لم نخش الله فمن ترانا نخشى؟ بل خشيتنا من الله يجب أن تكون أعظم من كل شيء آخر، لذلك وصف الله المسلم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[3]. والمسلم يحظى بهذه المنزلة، منزلة الرضوان. فمن هم أخشى الناس لله؟ يقول النبي ﷺ فيما رواه البخاري: **«أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»**. بما يعني

---

(1) سورة الممتحنة، آية: 8 ـ 9، انظر: ابن كثير: 8/ 89، والطبري 23/321، والقرطبي 18/58، وفي ظلال القرآن 7/183، والتحرير والتنوير 28/59.
قال القرطبي في تفسير قوله: ﴿ولا تقسطوا إليهم﴾: أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد بن العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي.

(2) سورة البينة، آية: 8، انظر: ابن كثير: 8/ 457، والطبري 24/543، والقرطبي 20/146، وفي ظلال القرآن 8/76، والتحرير والتنوير 30/468.

(3) سورة المائدة، آية: 119، انظر: ابن كثير: 8/ 53، والطبري 14/434، والقرطبي 6/379، وفي ظلال القرآن 8/81، والتحرير والتنوير 7/117.

أنا أخوفكم من الله. لذلك يخرّ المسلمون إلى الأذقان سجّدا وبكيّا من خشية الله سبحانه وتعالى. لذلك لا تصحّ مقولة أنا أعبدك لا خشية منك وإنما أعبدك محبة لك، لكن «أنا أعبدك خشية وأعبدك محبة» علما أنّ أساس الدين خشية الله ومحبته سبحانه وتعالى لذلك ينبغي أن نربّي أنفسنا وأسرنا وعائلاتنا وإخواننا على خشية الله، خشية تقتضي توقير شرائعه وإجلالها، إجلال كتابه وسنن نبيّه وأن نوقّر المسلمين ولا نحقّرهم بل نوقّر الإنسان.. لأنّ كل الناس هم خلق الله سبحانه وتعالى وأن تحسن للناس لأنّ ظلمهم لا يدلّ على خشية الله. ومن يظلم الناس فليس في قلبه خشية الله سبحانه وتعالى والذي لا يتصرّف في ماله بالقسطاس المستقيم لا يخشى الله والذي لا يقيم الصّلاة في أوقاتها لا يخشى الله والذي لا يذكّر أهله بواجباتهم في طاعة الله ولا يوقظهم للصلاة فهذا أيضاً لا يخشى الله سبحانه وتعالى لأن ربنا نبّهنا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾[1]. وقال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[2]. كيف يكون أولادنا عدوّا لنا يوم القيامة؟ عندما يحاسبون ولا يكونون من الناجين، عندها يعتذرون ويقولون آباؤنا لم يدلّونا إلى طريق الخير ولم يعلّمونا الصّلاة ولم يعرّفونا بالإسلام ولا بالقرآن ولم يأخذوا بأيدينا إلى المساجد ويحالون على النار وأزواجهم وذرياتهم. لذلك فإنّ المؤمن الصّالح هو الذي يخشى الله سبحانه وتعالى وكلما زاد علمه بالله زادت خشيته ومخافته من الله سبحانه وتعالى لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3]. والعلماء في كل مكان حتى غير المسلمين هم مؤمنون. قلّ وندر أن نجد عالما حقيقيا غير مؤمن لأنه كما يقول العلاّمة الأندلسي ابن رشد **«العلم بالصّنعة يزيدك علما بالصّانع»**. كلما اطلعت على العالم واكتشفت أسراره زادك ولا شكّ علما بالصّانع. ولذلك فإن الطّبيب الجرّاح الذي يطّلع على أسرار الإنسان لا شكّ أنه يلمس ما في الإنسان من إبداعات إلهية، فهو يتعامل مع صنع إلهي عظيم وكذا بالنسبة لعالم النبات وعالم الأفلاك وعالم الذرة...

لذلك نحن معشر المسلمين لا يمكن أن نعتقد أبدا أنّ العلم يناقض الدين، بل نعتقد أنّه كلّما ازددنا علما بالكون وبالإنسان ازددنا علما بالصّانع الحكيم وازددنا خشية له. ولذلك سمّيت

---

(1) سورة التحريم، الآية: 6، انظر: ابن كثير: 8/ 168، والطبري 23/491، والقرطبي 18/194، وفي ظلال القرآن 3/442، والتحرير والتنوير 28/345.

ذكر الحافظ ابن كثير أنها: بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [سورة المنافقون، الآية: 9].

(2) سورة التغابن، آية: 14، انظر: ابن كثير: 8/ 139، والطبري 23/422، والقرطبي 18/131، وفي ظلال القرآن 7/227، والتحرير والتنوير 28/227.

(3) سورة فاطر، آية: 28، انظر: ابن كثير: 6/ 545، والطبري 20/461، والقرطبي 14/341، وفي ظلال القرآن 6/149، والتحرير والتنوير 22/304.

مرحلة ما قبل الإسلام بالجاهلية. فالإسلام جاء حربا على الجهل وعلى الجاهلية بكل صورها اعتقاداً أنّ العلم يقود إلى الإيمان وكلّما ازددنا علما ازددنا إيمانا ومعرفة بالله وخشية له. نسأل الله أن يوفّقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصّالحين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

* * *

الخطبة الثانية
قتل النفس: أي معنى لهذا الجرم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمدإمام المرسلين وخاتم النبيين. اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. في العالمين إنك حميد مجيد.

إن من أعظم الكبائر الشرك بالله سبحانه وتعالى كأن تتخذ لله ندّا وقد خلقك، لذلك اعتُبرت جريمة الشرك بالله سبحانه وتعالى من أكبر الموبقات. ويلي ذلك جريمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، يليها عقوق الوالدين وقد وردت أحاديث كثيرة في التشنيع بقتل الإنسان بغير حق ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. وكما يقول الفيلسوف الألماني كانط **«كلّ إنسان يمثل الإنسانية في نفسه وإذا قتلت نفسا فكأنما قتلت الإنسانية جمعاء»**. وهو معنى قرآنيّ صحيح. هذا الفيلسوف الكبير أيمانوال كانط ظلّت علاقته مؤرّقة بالنسبة لمؤرّخيه وقد كُتبت البسْملة بالعربية على الصفحة الأولى من أطروحته التي قدمها للدكتوراه.. لا يُعرف عنه أنّه مسلم لكن هذه الوثيقة محيّرة.. ترى هل كتبها متبرّكا؟ هل كان مسلما؟ على كلّ حال هذا المعنى الذي ذكرناه والذي نُسب إليه هو معنى قرآنيّ من أنّ الإنسان يحمل في نفسه سرّ الإنسانية. والاعتداء على إنسان واحد هو اعتداء على الناس جميعا. أحاديث أخرى كثيرة وردت في هذا المعنى؛ فالنبي ﷺ يقول: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** وذكر قتل النفس. وسئل ﷺ أي الذّنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك من أجل أن يُطعم معك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني بحليلة جارك...»**. وهذا يشير إلى تحديد النسل خشية الفقر. وفي سورة الأنعام أكثر

(1) سورة المائدة، آية: 32، انظر: ابن كثير: 3/ 92، والطبري 10/231، والقرطبي 6/145، وفي ظلال القرآن 2/352، والتحرير والتنوير 6/175.

من آية وأيضاً في سورة الإسراء هناك تحذير من أن يقتل الإنسان ولده خشية أن يطعم معه وجاء في سورة الأنعام [151][1] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. وفي سورة الإسراء [31][2] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾. في الأنعام ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾ وفي الإسراء ﴿نَرْزُقُهُمْ﴾. . وفي ذلك دلالات عدّة. غير أنّه يجدر التّنبيه إلى أنّ قتل ولدك خشية أن يطعم معك هو عمل من أكبر الموبقات وكذا الشّأن بالنّسبة لمن يزاني حليلة جاره، والأصل هو حماية الجار وبذلك تصبح جريمة مضاعفة مثلما أنّ الإنسان يقوم بجريمة في المسجد أو في رمضان أو في مكّة المكرمة.

يحكى أنّ سارقا أدركته التوبة فذهب إلى الحجّ، وبينما هو يطوف انتبه إلى أنّ هناك من يهمّ بسرقته فضبطه وهو يمدّ يده إلى جيبه وأمسك به وهو معتاد لمثل هذه الأحوال. التفت إلى السّارق مخاطبا: أخي نحن نمارس السرقة في أقطارنا ونأتي هنا. . إلى البقاع المقدّسة كي نتوب، لكن إذا نحن مارسنا السرقة في البقاع المقدّسة فإلى أين نلتجئ كي نتوب؟ بالتّأكيد أنّ الجريمة هي جريمة مضاعفة وكلّما تضاعفت تضاعف الذّنب. وكما هو حال من يزاني حليلة جاره عوض أن يحميه في غيابه وهو في السّجن أو في الهجرة ويسوّل له الشّيطان اقتراف جريمة مضاعفة.

وقال ﷺ في حديث مشهور **«إذا التقى مسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»**، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»**. كما يقول عليه الصلاة والسلام: **«لن يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما»**. بمعنى أنّ المسلم ما زال على خير شرط أن لا يصيب دما حراما. وسئل ﷺ عن الكبائر فقال: **«الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين»**. ولذلك لا ينبغي للمسلم أن يتورّط في دم أخيه ولو بكلمة أو بإشارة أو موافقة، لأنّها جريمة كبرى ودم المسلم حرام ومقدّس، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفوس فما يجوز لأحد أن يصادر هذا الحقّ إلاّ بالحق بما يثبّت قاعدة النفس بالنفس ولا يحدوها شيء غير ذلك.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجعلنا من عباده الصّالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

تذكير بحدث:

من الجرائم التي حصلت هذه الأيام الأخيرة في دولة بنغلادش وهي دولة مسلمة بها 140

---

(1) سورة الأنعام، آية: 151، انظر: ابن كثير: 3/ 359، والطبري 216/12، والقرطبي 130/7، وفي ظلال القرآن 169/3، والتحرير والتنوير 158/8.

(2) سورة الإسراء، آية: 31، انظر: ابن كثير: 7/ 71، والطبري 436/17، وفي ظلال القرآن 16/5، والتحرير والتنوير 87/15.

مليون مسلم، والآن هناك جماعة مسلمة تتعرض لعملية اضطهاد واسعة شملت قيادة الجماعة الإسلامية في محاكمات وتهم تعود إلى بداية السبعينيات، أي من تاريخ انفصال بنغلادش عن باكستان بدعم من الهند وبانقلاب فصَل دولة باكستان فأصبحت الدولة دولتين. واليوم تحاكم الجماعة الإسلامية بجريمة أنها اعترضت على الانفصال وإبقاء الوحدة بين الدولتين وكأن الوحدة بينهما جريمة تعاقب عليها الجماعة بجريمة الخيانة. وحكم بالأمس على الأخ «دلوار سعيد» نائب أمير الجماعة بالإعدام ويظل بقية القادة معرّضون لأحكام ثقيلة. نسأل الله أن يعافي إخواننا وأن يشملهم بلطفه ورحمته وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا وأن يجعل لهم من ضيقهم مخرجا. . . آمين.

* * *

أي تكريم يوليه الإسلام للمرأة؟
بمناسبة إحياء ذكرى «عيد المرأة»[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿70﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

جاء الدين الإسلامي تكريما للإنسانية كلها ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[4]. وكل إنسان يحمل في ذاته تكريما إنسانيا، أو تكريما إلهيًا. اختار الله سبحانه وتعالى الإنسان خليفة له في الأرض

---

(1) الجمعة 8 مارس 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(4) سورة الإسراء، الآية: 70، انظر: ابن كثير: 5/ 97، والطبري 501/17، والقرطبي 54/2، وفي ظلال القرآن 35/5، والتحرير والتنوير 164/15.
قال العلامة ابن عاشور: والمراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو، كما هو شأن الأحكام التي تُسند إلى الجماعات.

وكرّمه على كل مخلوقاته، ومن المخلوقات من هي أكبر منه حجما ومنها من هي أطول عمرا ومنها ما هي أجمل.. لكن الله سبحانه وتعالى اختار هذا المخلوق ليكون له خليفة في الأرض وخلق البشر ذكرا وأنثى ولم يكن قدر الأنثى بأقل من قدر الذكر. فهما من نفس واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1] ولا أحد من البشر ذكرا كان أو أنثى يتطاول على غيره لأنه خلق من مادة أفضل أو من معدن أفضل أو من أصل أرقى.. «الناس بنو آدم وآدم من تراب» يبقى التكريم بعد ذلك يصنّف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2] والتقوى كما يقول ﷺ **«ها هنا»** وأومأ بيده إلى القلب ولا يطّلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى. وبالتالي فالناس جميعا ينبغي أن يقاسوا بمقياس واحد. والناس جميعا أمام القانون سواسية دون تفريق بين جنس وآخر أو لون وآخر.

مشروعية الاحتفاء بهذا اليوم:

يحتفي العالم هذه الأيام بذكرى أو بمناسبة عيد المرأة وهي مناسبة لم تكن من إبداع المسلمين لكنها كانت من إبداع غيرهم. وهل في ذلك مبرر كي لا نشارك في هذا الاحتفال؟ ليس هناك مبرر للإحجام. والنبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة وجد اليهود يحتفون بيوم يصومونه فسألهم... فماذا أجابوا؟ هذا يوم نجّى الله فيه موسى وأهلك آل فرعون فصام موسى شكراً لله فقال ﷺ: **«نحن أولى بموسى»**. معنى ذلك أن المسلمين لا يتمسكون بالأشكال وإنما تهمهم المقاصد والمعاني. إذا كان هناك مثلا عيد للعمال يَحتفي به الناس لإظهار حقوق العامل فليس هناك مبرر كي لا نشترك فيه، وكذلك بالنسبة لتكريم الطفل تكريما يُذَكّر فيه بحقوقه بقطع النظر عن كون هذه المناسبة ابتدعها المسلمون أو غيرهم.. وهكذا الشأن في الاحتفاء بعيد المرأة.

والثامنة من شهر مارس هو عيد عالمي للمرأة. نحن المسلمين أولى بكل خير لأن المرأة كُرّمت [الإسراء: 70]، [التوبة: 71]. وكما سبق أن ذكرتُ فالناس خلقوا من نفس واحدة بما يؤصّل للمساواة والتكامل بين الجنسين رغم أن هذه الكلمة كرهها بعض الناس لأنها ليست من مصطلحاتهم وهم يتوجّسون من كل مصطلح ليس بقواميسهم. بينما معنى التكامل هو معنى صحيح لا يخل بمعنى المساواة وعلماء الإسلام اتفقوا على أن خطابات الإسلام العامة الواردة في القرآن من قبيل [الحج: 77]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾[3]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(1) سورة النساء، آية: 1، انظر: ابن كثير: 2/ 206، والطبري 7/513، والقرطبي 5/1، وفي ظلال القرآن 2/39، والتحرير والتنوير 4/214.

(2) سورة الحجرات، آية: 13، انظر: ابن كثير: 7/ 385، والطبري 22/309، والقرطبي 16/340، وفي ظلال القرآن 6/489، والتحرير والتنوير 26/213.

(3) سورة الحج، آية: 77، انظر: ابن كثير: 5/ 455، والطبري 18/687، والقرطبي 12/98، وفي ظلال القرآن 5/218، والتحرير والتنوير 17/346.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ . . .[2]. كل هذه الأوامر جاءت في صيغتها ذكورية لكنها موجّهة للرجال والنساء معا أو هي موجهة للنوع. فعندما يقال «**يا أيها الناس**» فالخطاب موجه للنوع البشري، «**يا أيها الذين آمنوا**» كلام موجّه لكل المؤمنين رجالا كانوا أو نساء، كبارا أو صغارا. . . والأصل أن خطاب التكليف موجه للجميع والأصل أيضاً هو مبدأ المساواة بين الرجال والنساء وإنما التفاضل الوحيد هو التفاضل في الأعمال «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم**». إذن فالأصل هو المساواة. وحتّى المَواطن التي تبدو فيها استثناءات فإنها لا تعدو في الحقيقة إلا أن تكون استثناءات شكلية لكن في العمق هناك مساواة حقيقيّة بين النساء وبين الرجال. وإذا ظهر اختلاف في المواريث مثلا فإنّه يبدو كأنّه استثناء من المساواة والحقيقة ليست كذلك. وإنّما هي المساواة بعينها باعتبار اختلاف الأدوار في المجتمع وهذا الاختلاف لا يُخلّ بمبدإ المساواة، بل يفضي بنا إلى خانة التكامل بما يعني أنّ كلا منهما يكمّل الآخر. فما يبدو من مواطن قليلة فيها تفريق بين ذكور وإناث فذلك إشارة إلى تعدد الأدوار في المجتمع حتى يقوم كل بوظائفه المتنوعة والمتعددة ولذلك لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال.

حول مبدإ التكامل:

المطلوب أن يعتز كلّ جنس بجنسه ويرضى بما كتب الله له. لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[3]. هناك كتابات كثيرة كتبها الرجال بطبيعة الحال حول ما فُضّل به الرجال

---

(1) سورة التوبة، آية: 71، انظر: ابن كثير: 4/ 174، والطبري 347/14، والقرطبي 202/8، وفي ظلال القرآن 48/4، والتحرير والتنوير 262/10.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان: 70، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(3) سورة النساء، الآية: 32، انظر: ابن كثير: 2/ 287، والطبري 260/8، والقرطبي 162/5، وفي ظلال القرآن 104/2، والتحرير والتنوير 28/5.
قال الأستاذ سيد قطب: والنص عام في النهي عن تمنّي ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض. . من أي أنواع التفضيل؛ في الوظيفة والمكانة، وفي الاستعدادات والمواهب، وفي المال والمتاع. . وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة. . والتوجه بالطلب إلى الله وسؤاله من فضله مباشرة، بدلاً من إضاعة النفس حسرات في التطلع إلى التفاوت، وبدلاً من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد، ومن حنق كذلك ونقمة. . .
وقال العلامة ابن عاشور: وقد أصبح هذا التمنّي في زماننا هذا فتنةً لطوائف من المسلمين سَرَتْ لهم من=

ولكن ما فضلت به النساء قليل. هناك كاتبة تونسية السيدة كركر وهي أستاذة في كلية الشريعة ألّفت كتابا بعنوان «ما فُضّلت به النساء». وهو الجانب المكمّل لأنّ فضائل الرجال تكملها فضائل النساء ومطلوب من كل جنس أن يرضى بما كتب الله له أو أن يعتزّ بجنسه وأن يتطور في سياق جنسه لا أن يتطور في سياق الجنس الآخر. لذلك ممّا أصاب الحضارة المعاصرة أنها أعلت من بعض القيم على حساب القيم الأخرى. أعلت من قيمة الانتاج المادي وخفّضت من قيمة الانتاج الإنساني البشري. وإذا كانت قيمة الانسان فيما ينتج ماديا واقتصاديا بدا أنّ الرجال أقدر على الكسب وبالتالي بدا الرجال أفضل. وبدأت النساء ينافسن في هذا الطريق بينما تمّ تحقير المهام الانسانية والمعنوية كمهمة تربية البنين والاعتناء بالأسرة وانتهى الأمر إلى دور واحد وهو دور الرجال. وترجّلت النساء ووقع اختلال هائل في المجتمع وأصبحت الأسرة تكاد تنقرض أو متجهة إلى الانقراض بفعل اختلال قيَمي. لأنّ الحضارة المعاصرة أعلت من قيمة واحدة هي قيمة الانتاج المادي كما جعلت قيمة الانسان هي فقط فيما ينتج اقتصاديا وهذا صحيح ولكن ليس هذا فقط ولا يعيش الانسان بالمال فقط فالإنسان متميز بأنه كائن مفكر وبأن له عواطف وقيما وبالتالي يختل التوازن عندما يصبح المال هو القيمة العليا الوحيدة في المجتمع.

إنّ العالم اليوم يحتاج إلى الإسلام حتى يعود التوازن المفقود بين القيم المادية وبين القيم الإنسانية كقيم الأخلاق وقيم الرحمة وقيم المودّة وقيم الخيرية بدل قيم الأنانية. لذلك أنكروا مبدأ التكامل لأنّه يستبطن المعنى المجتمعي بينما الحضارة المعاصرة هي حضارة فرديّة قائمة على مجتمع يتكوّن من أفراد لكنّنا نحن المسلمين نعتبر أنّ المجتمع لا يتكوّن من أفراد فحسب وإنما يتكوّن من نسيج مجتمعيّ، من أُسر ومن شبكة من العائلات.

وجوه التكريم:

لكي تقوم العائلة فإنّها تحتاج إلى تكامل الأدوار وتوزعها. وإذا قارنّا بين دَور الرجال والنساء وجدنا أن دورهنّ أفضل، لذلك لمّا سئل ﷺ أي الناس أحق بحسن صحابتي قال أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أبوك. وفي الرابعة قال أبوك. ولذلك جعلت الجنّة تحت أقدام الأمهات. بحيث عندما نوازن بين أدوار الرجال والنساء فأدوارهنّ تفضّل في الحقيقة وتكون قيَمها سابقة في الدخول إلى الجنة عن قيم الرجال المتمثلة في قيم الفروسية والبطولة والإنتاج المادي ولأنه إذا تخلت المرأة عن هذا الدور، دور الأمومة ورعاية الأسرة فالمجتمع كله يتحلل. لذلك نلاحظ أن الحضارات التي مرّت على البشر كلها أوتيت من هذا الباب، باب تفسخ العلاقات الجنسية والعلاقات الأسرية وانفراط في عالم القيم.. عندها

= أخلاق الغُلاة في طلب المساواة، مما جرّ أمماً كثيرة إلى نِحْلَةِ الشيوعية، فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء، ويعانون إرهاقاً لم يحصلوا منه على طائل... وقوله: ﴿بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ صالح لأن يكون مراداً به آحاد الناس، ولأن يكون مراداً به أصنافهم.

تنهار الحضارة مهما كان ازدهارها لذلك فإنّه من تكريم المرأة في الإسلام أنّ ركنا من أركان الإسلام وشعيرة من شعائره إنّما هي في الحقيقة استحضار لبطولة المرأة وتميّزها. لعلكم تذكرون السّعي بين الصفا والمروة كاستعادة لقصّة تاريخية هي قصّة أمّنا هاجر رضوان الله عنها عندما كانت تبحث متلهّفة عن ماء تسقي به ولدها فكانت تهرول بين الرّبوتين. كذا كرّم الإسلام النساء من خلال استحضار هذا المشهد وجعله ركنا من أركان الحج ولا يتمّ للإنسان حج ولا تتمّ له عمرة إلا بتقفّي طريقة تلك المرأة. كأنّ الله سبحانه وتعالى ينوّه ويشيد بهذا الدور الناجم عن فيض الحنان في قلب المرأة. حنان في الحقيقة هو بمثابة الكنز حتى إذا ما نضب هذا الكنز نضبت الحضارة بأسرها. ونحن لا نجد دينا جعل ركنا من أركانه إحياء مشهد من مشاهد بطولة المرأة. وفي القرآن الكريم سورة من أطول السور: سورة النساء.

وسألت أم سَلَمة النبي يوما من الأيام: لماذا يا رسول الله يذكر الرجال (في القرآن) ولا نُذكر نحن النساء.

نفهم من هذا أن قصّة صوت المرأة عورة لا أصل لها، بل هي من خرافات عصر الانحطاط وخرافات خصوم الإسلام. كانت المرأة في مسجد رسول الله تتكلم بل تُوقف حاكما من أعظم حكام المسلمين وتقاطعه وهو يخطب وما سأل أحد أن صوتها عورة. فهذه مفاهيم انحطاطية لم تكن قد وُجدت بعد. فأول من آمن بالنبي ﷺ امرأة شدت من أزره وقالت له: «**كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً إنّك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق**». وآزرته بمالها وظل وفيّا لها حتى بعد موتها رغم أن الله آتاه نساء أخريات لكنه ظل وفيا لها صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

ويستجيب الله تعالى لأم سلمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿35﴾﴾[1].

قال المفسرون فما ذُكِر الرجال في موطن خير إلا وذكرت بجانبهم النساء. سواء كان موطن صيام أو صدقة أو فعل خير. فضلا عن أنّ لأم سلمة دوراً كبيراً في إنقاذ المسلمين من أعظم فتنة مرّت بهم: في صلح الحديبية لمّا أمر النبي المسلمين أن لا يقتحموا مكة وأن يذبحوا ذبائحهم دون أن يصلوا إلى الكعبة كما كانوا يرومون. فكبُر ذلك على أصحابه وقد جاؤوا بنيّة العمرة. لكن قريشا منعتهم من ذلك وقبل ﷺ أن يعود في تلك السنة دون الظّفر بالحج. وأمرهم أن يذبحوا ذبائحهم بعيداً عن الموطن المخصص لذلك. ودخل ﷺ مغضباً حزيناً لأن أصحابه لم

(1) سورة الأحزاب، الآية: 35، انظر: ابن كثير: 6/ 417، والطبري 20/268، والقرطبي 17/267، وفي ظلال القرآن 8/81، والتحرير والتنوير 21/247.

يطيعوه. أنكرت أمّ سلمة الموقف وأشارت عليه بأن يترفق بأصحابه وأن يبادر بالذّبح أمامهم فسيقتدون به وكان الأمر كذلك. هكذا أنقذت أم سلمة الصّف الإسلامي والجماعة المسلمة من أكبر تحدّ واجهها في عصيان الأصحاب لنبيّهم وذلك يُعدّ كبيرة من كبائر الدين. هكذا شاركت النساء في الدعوة وفي الجهاد وفي البذل والتضحية.

وتونس أيضاً مليئة بالبطولات والمآثر النسائية حتى أن المؤرخ الكبير حسن حسني عبد الوهاب كتب كتابا بمجلدين عنوانه «شهيرات تونسيات» وهو ما فعلته التونسيات في خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية ومن ذلك أن جامعات من قبيل جامعة القرويين بالمغرب تبرعت امرأة تونسية ببنائها وكذلك «العزيزة عثمانة» ومآثرها التي لا تزال باقية حتى اليوم من مراكز علم ومدارس وأوقاف. كان للنساء المسلمات أدوار عظيمة في هذا الجانب.

وفي ثوراتنا المعاصرة كان للمرأة التونسية ـ والمرأة في كلّ مكان ـ دور كبير في الفعل والإنجاز.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يبارك في نسائنا وأن يبارك في رجالنا وأن يجعل محمداً ﷺ وأزواجه الطاهرات قدوة لنا. . .

* * *

الخطبة الثانية
أيّ مقاييس. لترجيح كفة الخير

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. في العالمين إنك حميد مجيد.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

إن حياة الإنسان محددة بأجل وذلك قدر من أقدار الله، وأقداره مخفية عنا فقد أظهر لنا سبحانه وتعالى شرائعه وما يجب فعله وأخفى أقداره فما ندري ما سيفعل بنا بعد لحظة. وللأعمال مقاييس تقاس بها يوم القيامة. مقياس بين كفّتي الحسنات والسّيئات. فمن رجحت حسناته دخل الجنة ومن رجحت الكفّة الأخرى أُخذ إلى النار والعياذ بالله. فهذا مقياس لذلك عندما نقيس واحدا من أصحابنا لا ينبغي أن نأخذ جانبا واحدا وإنما نأخذ كل الجوانب. ويقول عليه الصّلاة والسّلام في موضوع الزوجات «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقا رضي منها آخر». فلا يحمل عليها غيظا شديدا ولا يركز نظره على الجوانب السلبية في هذه المرأة لأن كل البشر ينطوون على سلبيات بعضها مادي أو شكلي وبعضها معنوي؛ فلِم يقع التركيز على الجانب السلبي فقط تجاه الجانب الآخر؟ ولِم لا يقع التّركيز على النقاط الإيجابية المتعلّقة بالزوجة أو بالأبناء وهي موجودة لا محالة؟ فالموَازنة بين كفّتي الحسنات والسيئات أو بين السلبيات والإيجابيات مسألة ضرورية في تقييمنا لأزواجنا أو لأصحابنا ولا نركز فقط على الجوانب السلبية. . وهذا هو ميزان يوم القيامة بحسناته وسيئاته. هناك ميزان آخر وهو من الخطورة بمكان، إنّه ميزان خواتيم الأعمال فتقاس مصائر الناس بآخرِ عمل أنجزوه لأنّ الإنسان يُبعث على ما مات عليه: إذا مات يصلّي يبعث مصليا، وإذا مات في الخمّارة يبعث مع اهل الخمور. . وهكذا. . لذلك كان النّبي عليه الصّلاة والسّلام يسأل الله حسن الخاتمة وقد ورد في «صحيح البخاري» في حديث مشهور:

«**إنّ أحدكم ليعمل بعمل اهل الجنة** (من صلاة وصيام ونفقة ونهي عن المنكر...) **حتى لا يكون بينها وبينه إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار** (والعكس صحيح أيضاً) .**وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار** (سكر وفساد وعربدة وطغيان وجبروت وأكل أموال الناس بالباطل وغيبة ونميمة) **حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**». فلا لأحد مهما بلغ علما يمكن أن يعلم متى ستكون خاتمته ومتى ستكون ساعة لقائه بالله سبحانه وتعالى. هناك مخاطرة حقيقية، وكل لحظة من حياتنا يمكن أن تقضي علينا قضاء أبديا. يقول الرسول ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**». فإذا ما ضبطه ملك الموت وهو على تلك الحال انتهى أمره وحشر مع الزناة أو مع الخمارين. لذلك نسأل الله حسن الخاتمة.

(ساعة الاحتضار) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (ساعة الاحتضار) ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿30﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾﴾[1]. وتحضر الملائكة لحظة الفزع الأكبر، لحظة انتزاع الروح عندها تحضر الملائكة تطمئنهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿49﴾﴾[2]. فمن علامات النّجاة أن يكون الإنسان في كلّ لحظة من لحظات حياته مستحضرا أن تكون اللحظات خيرة ويكون فيها مستقيما تقيّا متجها فيها لله سبحانه وتعالى. والنّبي نفسه صلّى الله عليه وسلم كان يسأل الله حسن الخاتمة وهو من هو مقاما عند الله سبحانه وتعالى. فاحذر أخانا أن يلقاك ملك الموت وأنت في نميمة أو غيبة أو معصية من المعاصي.. لأنه عندئذ مهما كانت أعمالك السّالفة عظيمة فسيحكم عليك بتلك اللحظة الأخيرة. وإنما الأعمال بخواتيمها نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى..

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. اللّهم يا رحمٰن الدّنيا والآخرة يا ولي الصالحين اللّهم انظر إلى عبادك المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها واشملنا بلطفك ورحمتك. اللّهم فكّ أسرانا في بنغلادش اللّهم فك أسرانا في الإمارات الهم فكّ أسرانا في فلسطين وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك. اللّهم يا ربّنا انصر دينك وأولياءك نصرا عزيزا. اللّهم سدّد رأي ورمية إخوتنا في سوريا وفي فلسطين وفي كلّ مكان يستضعف فيه عبادك. بارك اللّهم في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرّشد ومنازل الصّدق وحقق بها آمال

---

(1) سورة فصلت، الآيتان: 30 ـ 31، انظر: ابن كثير: 7/ 175، والطبري /335، والقرطبي 22/111، وفي ظلال القرآن 6/408، والتحرير والتنوير 24/228.

(2) سورة الأعراف، الآية: 49، انظر: ابن كثير: 3/ 422، والطبري 12/469، والقرطبي 7/214، وفي ظلال القرآن 3/225، والتحرير والتنوير 8/144.

شعوبها وردّ بها مكائد أعدائها. اللّهم اجمع شعبنا وشعوب المسلمين على البرّ والتقوى، آخ اللّهم بين قلوب المسلمين، ولّ على المسلمين خيارهم يا رب العالمين. اللّهم وفقنا لما تحب وترضى وبارك في أزواجنا وذريتنا ولا تجعل منا ولا فينا شقيا ولا محروما ولا فتّانا ولا مفتونا. اللّهم إنّ هذه قلوبنا بين إصبعيك الكريمين تقلبها كيف تشاء اللّهم طهرها من الشحناء والبغضاء والرياء ومن النفاق واملأها بنورك الذي لا يخبو. اللّهم اشرح صدورنا بفيض الإيمان بك وجميل التوكل عليك، أحينا اللّهم بمعرفتك وأمتنا على الشهادة في سبيلك يا نعم المولى ويا نعم النصير وصلّ اللّهم وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. . إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذّكرون.

* * *

في ذكرى الاستقلال[1]

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إنّ أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

إنّ الله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأمة بالإسلام ومنّ عليها بهذا الدين العظيم وجعلها خير أمة أخرجت للناس ودعا المؤمنين إلى أن يكونوا أعزّاء فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. فهذه الأمة مطلوب منها أن تكون مسلمة ومعنى ذلك أن تكون عزيزة، كريمة،

---

(1) الجمعة 22 مارس 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(4) سورة المنافقون، الآية: 8، انظر: ابن كثير: 8/ 126، والطبري 402/23، والقرطبي 129/18، وفي ظلال القرآن 213/7، والتحرير والتنوير 232/28.

قويّة وأن تكون مستقلّة بقرارها. ولذلك لا يجوز لها أن تكون تابعة لغيرها لأنّها خير أمة أخرجت للناس. فالمطلوب من هذه «الخيرية» أن تقرن بـ«الإمامة»، فسيّدنا إبراهيم عليه السّلام دعا أن يكون إماما، وعباد الرّحمن تندرج دعواتهم ضمن قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[1]. فعباد الرحمٰن من علامات عبوديتهم لله أن لا يكونوا تابعين لغيرهم، أي أن يكونوا مستقلين. لذلك يحتفي شعبنا بذكرى الاستقلال وهو يفعل ذلك من منطلق إسلاميّ يُحثّ المسلمين ويدفعهم كمستقلّين بقرارهم وهم من خير أمة أخرجت للناس. فهذا أحد معاني العزّة بالإسلام وهو أن تكون هذه الأمّة أمّة مستقلّة، حتّى أنّ رسول الله ﷺ وقد ظلّ وأصحابه يتجهون إلى بيت المقدس كقبلة لهم، فلم يكن مرتاحا لذلك وهو يتطلع لأن تكون لأمته قبلتها المستقلة. وقد ورد في قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[2]. فارتاح ﷺ لأنه كان يريد لأمّته أن تكون مستقلة بقبلتها وبكتابها وبدولتها وبعزتها كذلك، فلم تكن دعوته مجرّد نِحلة دينيّة لها شعائرها وعقائدها وإنّما كان ﷺ يصنع أمّة عظيمة لها دولتها وقوانينها. لذلك عندما نزل بالمدينة اتّخذ دستورا يجسّد هذه الاستقلالية وتتحقّق فيه المواطنة لكلّ سكان المدينة يتعايش فيها المسلم واليهودي والمسلم والمشرك والمسلم وغير المسلم. . والجميع يتمتّع بحقوق المواطنة في دولة المدينة كجزء من استقلال هذه الأمة. وقد بيّن المؤرّخون ومنهم محمد حميد الله في كتابه «وثائق النبي»، بيّن بالدّليل أنه ﷺ حدّد للمدينة حدودا بحيث أصبح هناك دولة لها حدودها واتّخذ خاتما وحجّابا وسفراء وقادة للجيش. كلّ ذلك جاء كجزء من عملية استقلال هذه الأمة الوليدة. ولم يرض المسلمون لأنفسهم أن يعبدوا الله عبادة مجرّدة عن مطالب الدنيا وعن متطلبات الدين وأبوا إلاّ أن يكونوا مستقلّين بقرارهم. وهذا معنى من معاني العزّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. فحيثما اتّجه المسلمون وحيثما حلوا في أيّ صقع من أصقاع الأرض إلاّ وعملوا على أن يكون لهم دينهم وأن تكون لهم سياستهم وأن تكون لهم دولتهم وأن يكون لهم قرارهم المستقل.

هذا لا يعني أن يعلنوا الحرب على العالم. لكنّ دينهم يقتضي أن تكون لهم شرائعهم

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 74، انظر: ابن كثير: 6/ 130، والطبري 318/19، والقرطبي 82/13، وفي ظلال القرآن 334/5، والتحرير والتنوير 81/19.
قال القرطبي: أي قدوة يُقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوةً.
ونقل ابن كثير عن ابن عباس والحسن البصري وقتادة وغيرهم: أئمة يُقتدى بنا في الخير.

(2) سورة البقرة، الآية: 144، انظر: ابن كثير: 1/ 458، والطبري 172/3، والقرطبي 158/2، وفي ظلال القرآن 94/1، والتحرير والتنوير 26/2.

(3) سورة المنافقون، الآية: 8، انظر: ابن كثير: 8/ 126، والطبري 402/23، والقرطبي 129/18، وفي ظلال القرآن 213/7، والتحرير والتنوير 232/28.

واقتصادهم وأنظمتهم ودولتهم. . لذلك وإذ يحتفي شعبنا هذه الأيام بالذكرى السّابعة والخمسين لاستقلال البلد، فإنّما هو يحيي معنى من معاني الإسلام حتى أنه ورد في الأناشيد الشّعبية في الجزائر يوم استقلالها الذي جاء بثمن باهظ وقد خرج الناس يهتفون «يا محمد صحّ ليك الجزائر رجعت ليك». فهم يهنّئون النّبي ﷺ بالجزائر التي رجعت إليه وهذا معنى من معاني الاستقلال، أنّه أعاد قطعة من دار الإسلام إلى أصحابها.

كان الناس يصلون ويصومون في ظل فرنسا ولكنّ دينهم كان منتقصا وذلك في غياب العزّة ولم يكن لهم القرار. فالمساجد كانت مفتوحة وجامع الزيتونة كان في حال ربما هو أفضل من حاله بعد الاستقلال، حيث ظلّ التّدين قائماً بالمعنى الحرفي وفرنسا لم تنل من الصّلاة ولا من الصّيام ولا من الكتاتيب، لكنها نالت ومسّت من معنى العزة والكرامة. انتقصت معنى أساسيا من معاني الإسلام في أن يكون لهذه الأمّة قرارها المستقل وسيادتها. ولذلك يصبح من المفترض أنّه أعاد قطعة من دار الإسلام كانت مقتطعة منه، أعادها إليه وأعاد إلى جزء من المسلمين قرارهم بأنّهم سادة في بلادهم وليسوا عبيدا، لذلك حق لهم أن يحتفلوا بهذه المناسبة.

لكن ما الذي جعل هذا الاحتفال باهتا؟ لوحظ أنّه للسنة الثّالثة في زمن الثورة يظلّ الاحتفال بهذه الذكرى باردا، ونقدّر أنّ جزءا من هذا الكلام صحيح على الأقل. لكن يمكن أن نطرح السؤال بشكل آخر: هل كانت الاحتفالات تأخذ طابعا شعبيّا قبل الثورة؟ هل كان الشعب فعلا متحمّسا لهذه الذكرى؟ وللحقيقة فقد كان الطابع الشّكلي هو الغالب في هذه الاحتفالات وكأنّما كانت الحشود تسير في موكب جنازة وليس في كنف الاحتفال. لماذا يحصل ذلك يا ترى؟ ألم تكن ذكرى الاستقلال عزيزة على التونسيّين؟ ألم يدفعوا في سبيل ذلك آلاف الشهداء والمشرّدين والسّجناء وظلوا يتابعون ثوراتهم منذ 1881 إلى أن حصل الاستقلال؟ كانت فرحة الاستقلال فرحة عظيمة بحدث عظيم في تاريخ شعبنا: إنّ جزءا من المسلمين وهم التونسيون استعادوا قرارهم بأيديهم واستعادوا دولتهم. لكن لماذا أصيب الناس بخيبة أمل؟

إنّ الآمال التي كانت معلّقة على الاستقلال لم يتحقق منها الشّيء الكثير إذ لا معنى لخروج المستعمر من الأرض ولا معنى لاستعادتها فقط. نعم أعاد الاستقلال للتونسيّين أرضهم لاسيما بعد معركة الجلاء الفلاحي وجلاء القوّات الأجنبيّة وبعد معركة بنزرت فلم يعد يوجد جندي أجنبي على أرض تونس ولذلك فإنّ هذا الاستقلال حريّ أن يُحتفى به وأن يمجّد من ساهموا في تحقيقه ونترحّم عليهم جميعا. لكن استقلال الأرض يظلّ في حاجة إلى استقلال في الفكر وفي السّلوك وفي الأخلاق وفي العزّة والسيادة. . غير أنّه لم يحصل شيء من ذلك على أرض الواقع إلاّ القليل، بل أحياناً نشاهد أن معاني الاستقلال تضاءلت بل إنّ ما كان موجودا من قبيل الاستقلال الثقافي الذي كان لنا عهد الاستعمار لم نسترجعه بعد. فكانت أوّل مبادرة بعد خروج المستعمر تمثّلت في ضرب جامع الزيتونة الذي هو في الحقيقة الحارس الثقافي لإسلام تونس وعروبتها. فكانت الهجمة الأولى موجّهة إلى هويّة البلد، بل إلى المؤسّسة الحارسة للهويّة. فكانت الضّربات متواترة على المستوى الثّقافي ونالت من الأوقاف ومن الكتاتيب وكان الهجوم حتى على

بعض المعاني الأساسيّة العقائديّة للأمّة كالتّهجم على القرآن الكريم وانتهاك حرمة رمضان وحمل النّاس على الإفطار وضرب الحجاب فكانت في الحقيقة بمثابة «الاستقلاب». هكذا أفرغ الاستقلال من معانيه وظلّ هيكلا شكليّا كالدولة والوزراء والسفراء. لكن ماذا عندنا من المعاني الحقيقيّة للاستقلال كالاستقلال الثّقافي واستقلال الهوية واستقلال القرار السيادي.

ما حصل عندنا يصنف في خانة ما تسميه الصوفية بوحدة الوجود: هكذا انحسر الاستقلال في جزء ممن قادوا معركة الاستقلال واستولوا على البلاد وأصبح الكلام عن الاستقلال هو كلام عن بعض الزعماء لا غير. وعندما تُذكر الدولة يُذكر معها بعض الناس فلم يعد هناك فرق بين دولة اسمها تونس وبين حكامها. وهو نوع من التشخيص والتجسيد. هذا الخلط أساء حقيقة للاستقلال وأصبح الاحتفال به هو احتفال بهؤلاء الزعماء، بل ليس كلّ الزعماء لأنّ هناك منهم من تمّت شيطنتهم وتمّ قمعهم وتمّ تشريدهم أو اغتيالهم. كنّا يوما في قصر قرطاج مع رمز من رموز سيادة تونس وتمّ تداول بعض الملفّات المسكوت عنها أو الملفّات الدّامية: ملفّ اليوسفيين الذين اغتيل زعيمهم وشُرّدوا شرّ تشريد وتمّ توسيم من بقي من أبنائهم وأحفادهم وتمّ توسيم البعض ممّن حاول التّغيير سنة 1963 فيما يسمّى بـ«المحاولة الانقلابية». هؤلاء أيضاً أبيدوا. حضرتْ ابنة لزهر الشرايطي الذي كان أحد مناضلي الاستقلال ومن القادة الكبار. تحدثتُ مع هذه السيدة.. ما الذي حلّ بأسرتها؟ فممّا ذكرتْ، أنّ أخاها الصغير ظلّ مهاجرا في الخارج مدّة طويلة ثم رجع في السنوات الأخيرة، رجع يبحث عن قبر والده. ذهب إلى كلّ مكان وزار كل المؤسّسات يبحث متلهّفا لمعرفة قبر أبيه. هو لا يعرف والده فلا أقلّ من أن يعثر على أثر من آثاره. لم يدلّوه على القبر الذي غدا من القبور المجهولة. كنّا نظن أنّ إسرائيل وحدها بها قبور سرّية، فتبيّن أنّنا نحن أيضاً لنا قبور سرية، يعني يُتعمّد قتله ويُتعمّد إخفاء قبره. ظلّ بعض الشّبان من أبناء باب سويقة الذين أعدموا سنة 1992، ظلّ آباؤهم يبحثون عن أثر أبنائهم من مقبرة إلى أخرى، يبحثون ـ هم الآخرون ـ عن أثر لأبنائهم ضمن المقابر السرّية.. هكذا بحث ابن لزهر الشرايطي عن قبر أبيه في كلّ مكان وعندما لم يسعفه أحد اختبل وقال: ليس لي أب.. ثم انتحر في النهاية.

وبالتّالي عندما نتحدّث عن الاستقلال وعندما نلاحظ أن التّونسيّين ليسوا متحمّسين لهذه الذّكرى فذلك راجع إلى أنّ الاستقلال وقع ابتلاعه من طرف بعض قادة الاستقلال ممّن استولوا عليه وجسّدوه في أشخاصهم ونكّلوا بكل من عارضهم، بحيث اختلطت هذه الذكرى واندمجت وتمازجت بجملة من المصائب والآلام وأصبحت المشاركة في هذا الاحتفال بمثابة المشاركة في مسرحية رديئة ومؤلمة.

حان الوقت الآن كي نميّز بين أمرين، بين هذه الذّكرى وما تمثّله من معاني البطولة والشهامة والتضحيات فنجلّها ونمجّدها وبين ما يسجله التاريخ من حقائق موجعة من ناحية أخرى. ويحمل التاريخ في جوفه ما يُحبّ وما يُكرَه. وعلينا أن نميّز بين الدولة التونسيّة وبين حكوماتها فنثور مثلا على حكومة من الحكومات، ولكن ينبغي أن نحافظ على الدولة وفي ذلك

محافظة على التاريخ. كل شعب له تاريخه وما ينبغي أن يضمره ولا داعي أن نرمي ـ كما يقال ـ أن نرمي بالولد وبالغسيل معا. . فهذا الاستقلال بمآسيه لا يستدعي أن نلقي به جملة وتفصيلا بل ينبغي أن نعمل على نظافته ونحتفي به. تاريخ 50 سنة يحتاج إلى تنظيف. ولكي نعرف ماذا بقي الآن من الاستقلال ومن معاني العزّة والكرامة فلننظر مثلا إلى لغة التونسي المختلطة من فرنسي إلى عربي إلى انجليزي بما يوحي بأنّ هناك عمليات إرباك. وبالفعل فقد شهدت هويّتنا نوعا من حالات إرباك شديدة لا في اللغة فقط لكن في القيم أيضاً، ويظهر ذلك في مشاهد شاذّة تتخلّص فيها المرأة من معالم الحياء حتّى تخرج عارية. وعندما نرى جَدَلا حادّا حول معاني الهوية، وعندما نرى أنّ الأمر من معارضة الحكومة يصل إلى حدّ النيل من الاستقلال الاقتصادي للبلاد، سواء من خلال المطالب المشطّة أو الإضرابات أو قطع الطرقات. . . نخلص إلى أنّ هناك خللا واضطرابا في الهويّة وأنّنا نحتاج إلى عمليّة تنقية وتصفية حتّى نميّز ما يُحتفى به أو ما يستحقّ أن يحتفى به وبين ما يستحقّ أن يطرح جانبا بين الولد وبين الغسيل، بين الدولة التونسية وبين حكوماتها. .

وهؤلاء السياسيّون فيهم من يستحقّ التّكريم ومنهم من يستحقّ النقد. وعلى كلّ حال ينبغي أن نتصالح مع تاريخنا بعد التمحيص والممايزة بين الغثّ والسّمين، بين الجهود الطيّبة التي بذلها أسلافنا من السياسيّين من أجل تحرير البلاد، هؤلاء نكرّمهم من أجل ذلك. . وبين من ابتلع الاستقلال وجعله يتجسّد في بضعة أشخاص ويصبح التّنويه ليس بالشعب التّونسي صاحب التضحية ومالكها وليس بالشّهداء الوافدين من مختلف المدن والأرياف والبوادي وهم يصمدون في الوعور وفي الجبال. . وإنما يصبح التّمجيد كلّه لشخص واحد أو لبضعة أشخاص أو لحزب واحد بعد إلغاء الآخرين.

نحن مع الاحتفال بهذه الذكرى وتمجيد أبطالها. . وبطلها الأوّل هو الشّعب التّونسي لاسيما أولئك الذين أخبر عنهم النبي ﷺ في قوله: **«إذا حضروا لم يُعرفوا»**. والذين قاسَوا من بين اليوسفيّين ونُكّل بهم شرّ تنكيل من أهل الرّيف وأهل القُرى والبوادي ومن سائر التّونسيّين العاديّين الذين لم ينالوا من ثمرة الاستقلال شيئاً بل ربّما نالهم منه اضطهاد شديد وتحقير لهويتهم واعتداء على مقدساتهم.

نسأل الله أن يوفّقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصّالحين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

* * *

الخطبة الثانية
حقوق الإنسان في الدستور التونسي التأصيل والتأويل..

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. في العالمين إنّك حميد مجيد.

يدور النقاش هذه الأيام حول قضايا دستورية متعلقة بالدستور الذي هو محاولة تضمن حرية الناس وتضمن استقلال البلاد وتعبر عن قيم هويتنا، كما تحاول أن تستوعب القيم الإنسانيّة من محاور النّقاش حول حقوق الإنسان وهل لها طابع عالمي كوني أو هي تعبير عن ثقافة الشعوب الغربية التي صاغت هذه الإعلانات والمعاهدات الدولية لحقوق الإنسان.

أوّلا: هل فعلا أن هذه الحقوق صاغها فلاسفة الغرب ورجال قانونه أم هي إنسانية حقيقة؟ بالعودة إلى الوثائق والتاريخ يتبين أنّ هذه البيانات والإعلانات ومنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تم اعتماده سنة 1948، نلاحظ أنّ المساهمين في صياغة هذه الوثائق هم رجال ينتمون في الحقيقة إلى ديانات كثيرة وإلى ثقافات كثيرة ولم يكونوا مجرّد أمريكان أو أوروبيين ـ ربما كان الأوروبيّون هم الأكثر ـ لكن هذه الوثائق روعي فيها بأكثر ما هو ممكن لمن سنّوها أن تكون إنسانيّة. فما موقفنا نحن من هذه الإعلانات ومن هذه المعاهدات الدولية لحقوق الإنسان؟ هل معنى «حقوق الإنسان» هو أصيل عندنا أم هو معنى استعرناه من الغرب عامة؟ ليس هناك مشكل في الاستعارة لكن معنى تكريم الإنسان عمليا هو ـ بقطع النظر عن لونه وجنسه ودينه وهويته ـ أن يحمل في ذاته تكريما أي حقوقا وكرامة؟ هل هذا المعنى طارئ علينا؟ إنّه معنى أصيل في الإسلام وخطابات القرآن الكريم نوعان: من ناحية و من ناحية أخرى، حتى إنّ آخر

سورة في القرآن الكريم وهي من قصار السور ذكر فيها الناس خمس مرّات وكأنّما القرآن وهو يودع آخر فصل فيه بتكرار مصطلح «الناس»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ من ناحية أخرى، حتى إنّ آخر سورة في القرآن الكريم وهي من قصار السور ذكر فيها الناس خمس مرّات وكأنّما القرآن وهو يودع آخر فصل فيه بتكرار مصطلح «الناس»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من ناحية و من ناحية أخرى، حتى إنّ آخر سورة في القرآن الكريم وهي من قصار السور ذكر فيها الناس خمس مرّات وكأنّما القرآن وهو يودع آخر فصل فيه بتكرار مصطلح «الناس»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ من ناحية أخرى، حتى إنّ آخر سورة في القرآن الكريم وهي من قصار السور ذكر فيها الناس خمس مرّات وكأنّما القرآن وهو يودع آخر فصل فيه بتكرار مصطلح «الناس»: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾[1]. وكان الشغل الغالب على اهتمام المسلمين كان حول خطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. فصدر الفقه كلّه شرحا في هذا الإطار، بينما الخطاب الآخر المتمثّل في لم يقع التركيز عليه وإلاّ لكان المسلمون هم الذين أبدعوا إعلانات حقوق الإنسان وأغنونا عن الإعلانات المتأتية من الأمم المتحدة. على كل حال وقد جاءت هذه الإعلانات ينبغي أن نكون أسعد الناس بها وأكثر الناس ترحيبا بكون البشرية وصلت يوما للإقرار بأنّ للإنسان حقوقاً بقطع النظر عن كل اعتبار آخر و هذا معنى إسلامي ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الإسراء: 70]، كلّ إنسان يحمل في ذاته تكريما إلهيًّا. ولذلك لمّا كان ﷺ يجلس في مجلس من المجالس ومرّت أمامه جنازة فقام احتراما لها. فنبّهه أصحابه إلى أنّها جنازة يهودي ظنّا منهم أنّه أخطأ فقال: «**أليست نفساً**». قام ﷺ تكريما للنفس البشريّة بقطع النظرعن كون الشّخص نصرانيّا أو يهوديّا أو ملحدا أو شيوعيّا. . حريّ بنا نحن معشر المسلمين أن نرحب بكلّ ما يحمل تكريما للإنسان وكلّ ما يحمل حقوقا له وهذا تطور في الاتجاه الصّحيح: اتجاه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. .

لستَ شيئاً آخر يا محمد إلاّ أنك رحمة للناس. فالذين يقرؤون في كتابهم هذا المعنى [سبأ: 28] حريّ بهم أن يكونوا أوّل من يرحب بهذا التطور الذي نالته البشريّة، إذ اصبحت هنالك لوائح وإعلانات ومواثيق دولية تدافع عن الإنسان. وعندما هاجرنا من بلادنا اتّجهنا إلى العالم الإسلامي لكن لم يستقر بنا المقام طويلا، ما إن بدأت ضغوط النّظام المخلوع على الأنظمة العربية والإسلامية حتى طردنا أو خرجنا طوعا، لكن إلى أين اتّجهنا؟ كانت وجهاتنا إلى بلدان غربية إلى بلاد غير إسلامية. لم نذهب إليها هاربين من ديننا ولكن هاربين بديننا. لم نذهب في طلب الكفر ولكن ذهبنا نطلب العدل ونطلب الحرية. . لقد اتّجهنا إلى بلاد تحترم حقوق الانسان وكل الضغوط التي مارسها المخلوع على تلك البلاد من أجل استردادنا باءت بالفشل بينما نجح في

(1) سورة الناس، الآيات: 1 ـ 6، انظر: ابن كثير: 8/ 538، والطبري 24/709، والقرطبي 20/260، وفي ظلال القرآن 8/131، والتحرير والتنوير 30/631.

استرداد وبجلب الكثير منا من «البلاد الإسلامية» ولم ينجح قطّ في استردادنا من البلاد التي تحترم حقوق الانسان لذلك قال ربنا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1] حريّ بهم أن يكونوا أوّل من يرحب بهذا التطور الذي نالته البشريّة، إذ اصبحت هنالك لوائح وإعلانات ومواثيق دولية تدافع عن الإنسان. وعندما هاجرنا من بلادنا اتّجهنا إلى العالم الإسلامي لكن لم يستقر بنا المقام طويلاً، ما إن بدأت ضغوط النّظام المخلوع على الأنظمة العربية والإسلامية حتى طردنا أو خرجنا طوعا، لكن إلى أين اتّجهنا؟ كانت وجهاتنا إلى بلدان غربية إلى بلاد غير إسلامية. لم نذهب إليها هاربين من ديننا ولكن هاربين بديننا. لم نذهب في طلب الكفر ولكن ذهبنا نطلب العدل ونطلب الحرية.. لقد اتّجهنا إلى بلاد تحترم حقوق الانسان وكل الضغوط التي مارسها المخلوع على تلك البلاد من أجل استردادنا باءت بالفشل بينما نجح في استرداد وبجلب الكثير منا من «البلاد الإسلامية».

إذن ونحن نسنّ دستورا للمستقبل ينبغي أن نكون مبتهجين بأحدث ما توصّلت له البشرية من حقوق، كما ينبغي أن ندرج ذلك في دستورنا لأنّ ذلك يتوافق مع مقصد عظيم من مقاصد الإسلام الذي هو تحقيق مصالح العباد وأعظم مصلحة للعباد هي إقامة العدل بين الناس ورعاية حقوقهم. هل إنّ كل ما يرد في الإعلانات العالمية متوافق مع الإسلام؟ يبدو في جملته متوافق.. بعضه يختلف لكن الحكم الشّرعي دائما يتجه إلى الأغلب ويسعى إلى التّقريب لأنّ الدّنيا لا تقدّم لنا الخير المطلق أو الشرّ المطلق وإنّما يأتي الخير والشر في الغالب ممتزجين. فماذا نفعل؟ نقول ما غلب خيره فهو خير وما غلب شرّه فهو شرّ.

هناك كتاب للأستاذ الأصولي المغربي أحمد الريسوني بعنوان «التغليب والتقريب» حيث إنّ أحكام الشّرع تقوم على مبدإ التغليب والتّقريب سدّدوا وقاربوا.. لماذا حرمت الخمر؟ قال: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[2]. لهذا التّغليب حرّمت الخمر. للخمر منافع (نسيان هموم الدنيا، تشغيل مزارعين، نقل..ديوان الخمور..)، فلا نستطيع أن نقول إنّ الخمور شر كلها.. ولكن عندما تقيس هذه الخيرات القليلة إلى الشرور الكثيرة وأنّها تضيّع عقل الإنسان وهو أفضل ما يمتلكه، يكفي هذا الجرم كي يقع تحريمها.

نحن نقرّ هذه الحقوق الإنسانية وهذه المواثيق غير أنه يمكن ـ كما هو معروف في النظام الدولي ـ إمّا أن تؤخذ كلها أو يُمارس حق التّحفظ عليها أو على بعضها. يمكن لدولة أن تتحفّظ في معاهدة بها خمسون بندا على بند واحد مثلا. ففي النّظام التّونسي على سبيل المثال سواء في عهد بورقيبة أو في عهد بن على تمّ التّحفظ في الاتفاقية الدولية لمنع التّمييز ضد النساء على مبدإ

---

(1) سورة سبأ، الآية: 28، انظر: ابن كثير: 6/ 518، والطبري 405/20، والقرطبي 300/14، وفي ظلال القرآن 120/6، والتحرير والتنوير 199/22.

(2) سورة البقرة، الآية: 219، انظر: ابن كثير: 1/ 578، والطبري 320/4، والقرطبي 53/3، وفي ظلال القرآن 209/1، والتحرير والتنوير 338/2.

المساواة في الإرث باعتباره يخالف القرآن؛ وهل إنّ عدم المساواة في الإرث هو ضدّ مبدإ المساواة بين الرجال والنساء أم العكس؟ إذا نظرنا للمساواة نظرة شاملة في المجتمع نجد أنّه ليس ظلما للمرأة أن ترث نصف الرّجل في بعض الحالات وليس في كلّها لأنّه من الواجب على الرّجل أن ينفق عليها وعلى أبنائها. يبقى في المحصلة أنّها رابحة عندما نقول بالمساواة بين الرجال والنساء ندرك أنّها نظرية إسلامية من الزّاوية الشاملة وليست الزّاوية الجزئيّة.

أذكر أنّ سيدة أرادت أن تختبرني وهي رئيسة منظمة إنسانية حقوقية وسألتني إن كنت أؤمن بالمساواة. فأجبت بالإثبات. فابتهجت لكوني تقدميّ وأرادت أن تختبر «تقدميّتي» فقالت:

- بورقيبة وبن علي كلاهما تحفظ على اتفاقية «سيداو» وعلى مبدإ المساواة في الإرث.. وأنت ماذا تقول؟

فكرت قليلا ثم ضحكت، قالت لماذا تضحك فقلت:

- هل تتصورين أنّ تديني سيكون أقلّ من تديّن بورقيبة وبن علي؟

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. في العالمين إنّك حميد مجيد.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. اللّهم يا وليّ الصّالحين يا من يجير ولا يجار عليه يا من وسع كل شيء رحمة وعلما اللّهم انظر إلى بلادنا وبلاد المسلمين بعين لطفك ورحمتك. اللّهم يا رب العباد فرّج كرب عبادك الأسرى في سوريا وفي فلسطين وفي بنغلادش وفي كلّ مكان يستضعف فيه عبادك. اللّهم أفرج كروبهم وعجّل بنصرهم. اللّهم سدّد رمية المجاهدين وسدّد رأيهم. اللّهم أكرمنا بالصّلاة في المسجد الأقصى محرّرا يا رب العالمين. اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرّشد ومنازل الصّدق وأجر على يدها الخيرات العظيمات وحقّق بها مطالب شعوبها وأحبط مكائد أعدائها. اللّهم وحّد شعبنا وشعوب المسلمين على طاعتك وإعلاء كلمتك ونصرة الحقّ يا رب العالمين. اللّهم بارك في أزواجنا وذرياتنا واختم بالصّالحات أعمالنا وجعل اللّهم أسعد أيامنا يوم نلقاك. إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

الإصلاح ومناهجه[1]

إصلاح الشيء هو العودة به إلى أصله:

إن الآلة التي لم تعد تؤدي وظيفتها نعيدها إلى أصلها كي تؤدي وظيفتها. والإنسان أصله مبني على الخير وقد فطر الله الناس على الخير ففي الحديث عن الله ﷻ: **«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم»**.

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم. فالصلاح هو الأصل. ومهمة الأنبياء والمصلحين والدعاة والأنظمة والقوانين كلها في الحقيقة تريد أن تعود بالإنسان إلى أصله وإلى فطرته ولذلك سمي الإسلام دين الفطرة أي هذا الدين الذي اتبع عاد بالناس إلى أصلهم وإلى فطرتهم الأصلية. فهذا الدين هو دين الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[2] ومهمة الأنبياء والمصلحين هي الإصلاح: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[3] ولكن هذا الإصلاح لا يمكن أن يحصل إلا بتوفيق من الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[4] هدي منه واستعانة.

كل الفلسفات في التاريخ وكل الثورات إنما قامت من أجل الإصلاح ومن أجل أن تطرد وتقاوم الفساد والظلم ولكنها لم تفعل ذلك بتوفيق من الله فأصابت في أشياء وأخطأت في أشياء

---

(1) 19 أفريل 2013.

(2) سورة الروم، الآية: 30، انظر: ابن كثير: 6/ 313، والطبري 220/9، والقرطبي 24/14، وفي ظلال القرآن 489/5، والتحرير والتنوير 40/21.

(3) سورة هود، الآية: 88، انظر: ابن كثير: 4/ 344، والطبري 453/15، والقرطبي 84/9، وفي ظلال القرآن 261/4، والتحرير والتنوير 143/12.

(4) سورة هود، الآية: 88، انظر: ابن كثير: 4/ 344، والطبري 453/15، والقرطبي 84/9، وفي ظلال القرآن 261/4، والتحرير والتنوير 143/12.

أخرى وأحياناً يؤول أمرها إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿103﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿104﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿105﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿106﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿107﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿108﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿109﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿110﴾﴾[1].

ولذلك لا يكفي أن يقول الإنسان أريد الإصلاح ولكن لا بد للإصلاح من منهج ولابد من فلسفة ومن أساس ومن قاعدة يقوم عليها هذا الإصلاح وكل المحاولات التي حدثت في التاريخ وتريد إصلاح الناس وتتجاهل فيه الحقيقة الكونية: أن لهذا الكون ربا وأن هذا الرب سبحانه وتعالى لم يخلق الناس هملا أو يتركهم ضائعين وإنما أعطاهم عقلا وأعطاهم هداية وأرسل لهم رسلاً، وحتى عندما انقطع حبل الرسل تعهد الله كما قال نبينا ﷺ: **«إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**.

أي معنى للتجديد؟:

فما معنى التجديد؟ عندما نريد أن نجدد قصرا صار قديما باليا. .فما معنى التجديد والترميم؟ الترميم هو الإرجاع إلى الأصل، لا أن يكون البناء إسلاميًا فنحوله إلى رومانياً أو أن يكون مسجدا فنحوله إلى خمارة. وعندها لا يصبح الأمر ترميما ولا تجديدا. والترميم هو الترجيع إلى الوظيفة الأصلية والمجددون منذ القرن التاسع عشر عندما تنبأ المصلحون الكبار في تونس من قبيل سالم بوحاجب وأحمد ابن أبي الضياف وخير الدين وسيدي إبراهيم الرياحي وغيرهم من المصلحين حتى وصل الأمر إلى الثعالبي وابن عاشور ومن إليهم، هؤلاء جميعا تنبهوا إلى أن بناء الأمة يحتاج إلى ترميم وأنه متداع للسقوط.

هكذا بدأت عملية الإصلاح. فما معنى عملية الإصلاح؟ لقد أرادوا أن يعودوا بالبناء إلى أصله وأن هذا البناء إسلامي بالأساس وهذا البلد إسلامي وينبغي أن نعود به إلى أصل الإسلام وأن ننفض الغبار عن هذا البناء الذي تراكمت عليه أتربة كثيرة وركام كثير ينبغي إزاحته.

ولنا أن نستفيد من الهندسة الغربية الاجتماعية منها والصناعية والسياسية وكل ما تصل إليه الحضارات وكل ذلك من أجل تجديد حقيقي من أجل أن نعود بالبناء إلى أصله وإلى وظيفته متمثلة في أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ولا يخطر ببال مسلم أن الإسلام يعجز عن حل مشكلة من المشكلات. ففي الإسلام حل لكل المشكلات ولكن بشرط أن تفهم الإسلام على حقيقته وأن تجدد الإسلام بلغة محمد إقبال وقد كتب في الموضوع كتابا عنوانه «تجديد التفكير

---

(1) سورة الكهف، الآيات: 103 ـ 105، انظر: ابن كثير: 5/ 201، والطبري 125/18، والقرطبي 64/11، وفي ظلال القرآن 52/5، والتحرير والتنوير 39/12.

الديني في الإسلام» فلنفهم الإسلام بطريقة جديدة ولكن لا نخرج فيها عن أصله وعن منطق اللغة العربية التي نزل بها. والإصلاح الحقيقي أن نستفيد من علوم الحضارات كلها من أجل أن نجدد البناء الإسلامي حتى نعود به إلى وظيفته الأصلية.

ولذلك وبعد انقطاع عام للنبوات أصبح في كل زمن يبعث الله من يجدد. و«من» هذه تنطبق على فرد أو على جماعة؟ ماذا يمكن أن يفعل الفرد لو لم يجد جماعة تساعده على ذلك وتشاركه ولذلك تعهد ربنا أن يبعث جماعة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾[1] وما المقصود من أمة. . إما أن يكون المسلمون كلهم أمة «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» أو من بين الأمة أن تكون هنالك جماعة وليس بالضرورة كل الأمة. هذه الجماعة هي التي تقود الأمة وتشيد البناء: تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الإصلاح.

هذا الإصلاح إما أن يكون إصلاحاً في العقيدة حتى لا تبقى هناك خرافات وأساطير وأوهام وقضاء حاجات من غير طريق الأسباب وعوض أن يذهب الإنسان الى الطبيب عند المرض نراه يتجه إلى الطب الروماني أو إلى شيخ من المشايخ ليكتب له حجاباً ليبلله بالماء ويشربه بعد ذلك. إذاً لماذا الطب؟ والرسول ﷺ قال: **«إن الله ﷻ لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء»**. وهذه الحجب والتعاويذ لا أصل لها في الإسلام.

نظام الأسباب:

إن الله أقام العالم على نظام الأسباب وقال ﷺ: **«أعقلها وتوكل»**. لا بد من العقال قبل التوكل. لا بد من الأخذ بالأسباب وإذا أردت النجاح في الامتحان لا بد من المجاهدة والعمل، لا أن تتوكل على الأولياء. ونرى كثرة الزوار على الأولياء والصالحين في موسم الامتحانات.

هكذا فإن إصلاح العالم يقام على ركنين: احترام نظام الأسباب وما جعل الله تعالى من سبب إلا وجعل له مسببا وهذا من العوامل التي تجعل من قراءة سورة الكهف كل أسبوع. لذلك ورد في سورة الكهف [85] قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[2] بمعنى أن ذا القرنين الذي سُخرت له قوى كبيرة اتبع نظام الأسباب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿83﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿84﴾﴾. . .[3].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 104، انظر: ابن كثير: 2/ 91، والطبري 90/7، والقرطبي 165/4، وفي ظلال القرآن 410/1، والتحرير والتنوير 36/4.

(2) سورة الكهف، الآية: 85، انظر: ابن كثير: 5/ 191، والطبري 92/18، والقرطبي 45/11، وفي ظلال القرآن 78/5، والتحرير والتنوير 24/16.

(3) سورة الكهف، الآيتان: 83 ـ 84، انظر: ابن كثير: 5/ 189، والطبري 91/18، والقرطبي 45/11، وفي ظلال القرآن 54/5، والتحرير والتنوير 17/16.

قال العلامة ابن عاشور: والسبب حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يُتَوَسّل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات التسخير، على وجه الاستعارة.

ونظام الأسباب نظام رباني أقام الله عليه نظام العالم. ولكن نسأل من أين يأتي الشفاء هو من دواء «الأسبرين» أم هو من عند الله؟

نستعمل الدواء من عند الطبيب ونسمي الله ونعتقد أن الشفاء من عند الله سبحانه وتعالى وكذلك نشرب ونعتقد أن الريّ لا يأتي من الماء وإنما يأتي من الله سبحانه وتعالى. وهو الذي جعل للماء قوة تروي كما جعل من النار قوة تحرق وجعل في السيف قوة تقطع. . . وكل هذه الصفات أعطيت من الله سبحانه وتعالى. ولكن نحن مأمورون أن نتبع الأسباب كما نحن مأمورون بإصلاح العالم باتباع الأسباب.

للنجاح أسباب وللفشل أسباب وللهداية أسباب وللضلال أسباب ومن اتبع أسباب الهداية هداه الله. . ومن اتبع أسباب الضلالة أضله الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[2]. ومن اتبع أسباب الهداية هداه الله ومن اتبع أسباب النجاح نجح ومن اتبع أسباب الفشل فشل وهذا هو نظام العالم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[3].

ونظام العالم قائم على الأسباب، والمؤمنون والكفار يؤمنون بذلك على حد سواء ولكن يتميز المسلمون بأنهم يتوكلون على الله سبحانه وتعالى لأنهم يتقون الله ويخشونه. وحتى عندما يملكون المال فإنهم يتبعون في تحقيقه بالأسباب المشروعة لأن هناك أسباب مشروعة وأسباب غير مشروعة وهناك سبب للصحة مشروع وسبب غير مشروع فإذا ادعى أحد أن في المسكر ما ينفع لكننا لا نؤمن بذلك ولا نتبع إلا الأسباب المشروعة ومنها الأسباب المشروعة للصحة والأسباب المشروعة للغنى والأسباب المشروعة للطعام والأسباب المشروعة للنجاح كما نحن نعتقد أن هذه الأسباب لا تعطي نتيجتها إلا بتوفيق من الله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[4] ولذلك عندما نكتسب المال لا نطغى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾. . .[5] لأننا نعتقد أن المال ليس فقط من عرق الجبين لأن الفرد يمكن أن يتعب ولكن بلا نتيجة وما الرزق إلا من عند الله سبحانه وتعالى والله هو الرزاق المتين.

---

(1) سورة القصص، الآية: 40، انظر: ابن كثير: 6/ 241، والطبري 592/19، والقرطبي 294/13، وفي ظلال القرآن 429/5، والتحرير والتنوير 63/20.

(2) سورة الجاثية، الآية: 23، انظر: ابن كثير: 6/ 71، والطبري 75/22، والقرطبي 166/16، وفي ظلال القرآن 393/6، والتحرير والتنوير 324/25.

(3) سورة الزلزلة، الآيتان: 7 ـ 8، انظر: ابن كثير: 8/ 464، والطبري 150/24، والقرطبي 150/20، وفي ظلال القرآن 84/8، والتحرير والتنوير 490/30.

(4) سورة هود، الآية: 88، انظر: ابن كثير: 4/ 344، والطبري 453/15، والقرطبي 84/9، وفي ظلال القرآن 261/4، والتحرير والتنوير 143/12.

(5) سورة العلق، الآيتان: 6 ـ 7، انظر: ابن كثير: 4/ 437، والطبري 519/24، والقرطبي 122/20، وفي ظلال القرآن 71/8، والتحرير والتنوير 434/30.

نحن نخوض معارك ولكن النصر بيد الله سبحانه وتعالى ونداوي اطفالنا ولكن الشفاء من عند الله ولذلك بعدما نداوي الطفل ماذا نفعل؟ نبتهل إلى الله بالدعاء. قد نتلو عليه آيات من كتاب الله: آية الكرسي أو المعوذتين وهذا من باب ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] فالدواء عزم والدعاء توكل.

فالحضارة الإسلامية بنيت على العدل وعلى الأخذ بالأسباب وبنيت أيضاً على الإيمان وعلى التقوى وعلى التوكل وعلى التوجه إلى الله سبحانه وتعالى ونجحت الحضارة المعاصرة بما اتبعت من نظام أسباب وهو نظام إسلامي ونجحت في بناء جيوش وبناء مصانع وبناء مختلف وسائل المواصلات هذه كلها نجاحات لأنها اتبعت نظام الأسباب وإننا تخلفنا لأننا خالفنا نظام الأسباب هم حاربوا الطغيان والجبروت ونحن استسلمنا لحكام الطغاة ولذلك هم نجحوا في حياتهم الدنيا والله سبحانه وتعالى تعهد أنه: من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

ثم إن الحضارة المعاصرة هي لم تتوكل على الله حق التوكل فأصبح المال فيها طغيان والقوة تحولت إلى جبروت وقوة الإعلام تحول الكثير منها إلى تجارة وإلى كذب وإلى غش، لأنه إعلام لم يُبْنَ على مبدإ الأخلاق والإيمان.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

(1) سورة آل عمران، الآية: 159، انظر: ابن كثير: 2/ 148، والطبري 7/343، والقرطبي 4/249، وفي ظلال القرآن 1/476، والتحرير والتنوير 1/400.

الخطبة الثانية
أي مكانة في الإسلام للخلق الحسن؟

اللّهم إنا نحمدك حق حمدك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أحسن ما وصف به ربنا سبحانه وتعالى خير خلقه محمد ﷺ أنه على خلق عظيم.

الخلق الحسن ومكانته في الإسلام:

وقد ورد في سورة القلم [4]: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

إن رب العزة ومن له الأسماء الحسنى يشهد لعبده أنه على خلق عظيم. كان سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ يتعجب كيف يتحمل النبي ﷺ هذا الثناء من الله رب العزة والجلالة. عندما يثني عليك أبوك أو شخص أكبر منك تشعر بانسحاق. فما بالك أن يكون هذا الثناء من رب العزة والجلالة. والنبي ﷺ كأنه جبل أشم تحمل هذا الوصف: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وسئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان خلق النبي ﷺ؟ فأجابت هذه التلميذة النجيبة في مدرسة النبوة بكلمة واحدة: «كان خلقه القرآن». يرضى برضاه ويسخط بسخطه. كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض. حياته كلها كانت ترجمة للقرآن والقرآن هو آيات وسور مترجمة في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

وسئل النبي عن الخُلق الحسن فقرأ هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(1) سورة القلم، الآية: 4، انظر: ابن كثير: 8/ 184، والطبري 23/528، والقرطبي 18/227، وفي ظلال القرآن 7/285، والتحرير والتنوير 29/58.

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1]. بحيث من استسمحك هل من المعقول أن تستميت في رفض التسامح معه؟ القرآن يقول اقبل أعذار الناس ولا تستكبر على من أذل نفسه وغالبها وطلب منك العفو فما الداعي إلى الرفض؟ إن التواضع خلق عظيم.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾: أي بالمعروف وأن نأمر الناس بالمعروف وننهاهم عن المنكر ولا تكن حياديا في هذه الدنيا.

هناك رواية انتشرت بعد الاستقلال سمّيت بـ«الحاج كلوف» مفادها أن لا تهتمّ بشؤون الناس. وهل هذا ينسجم مع خلق الإسلام؟ خلق الإسلام هو: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.. كذلك: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾...[2] وأن لا يكون المسلم حياديا في العالم ولكن يأمر وينهى، شأنه شأن الملوك. وكل مسلم ينبغي أن يتصرف بصفة مسؤول وأنه حاكم ويأمر وينهى..

ولكن بالمعروف. ومن أمر بمعروف فليكن أمره بالمعروف أي باللين والرفق..كذا يكون أمر الناس بإقامة الصلاة أو مرافقة سائق أجرة مثلا طيلة عشر دقائق فما المانع أن يكون الحديث عن الصلاة والعبادة وسؤاله عن علاقته وعلاقة أهله بالصلاة. هي فرص لن نتركها تضيع لإنقاذ الآخرين من النار وتبويئهم المكانة الرفيعة في الجنة. قال ﷺ: **«لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس»**.. ولذلك لا بد من الاعتبار أن كل فرصة نجدها في إنسان ولو لمدة عشر دقائق فلا بد من أداء الواجب خلالها تجاهه. وهذه الرسالة هي أمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾...[3] إن الله تعالى قد أوصل لك هذه الرسالة فلا بد من أدائها.

منزلة الرفق:

والنبي ﷺ يقول: **«فليبلغ الشاهد منكم الغائب»**... وأوصلت الرسالة ونقلتها من رقبتي إلى رقابكم إلى يوم القيامة. وإذا فسدت الدنيا فلا مُصلح لها إلا أنتم ولن يعود إليكم نبي ولا رسول..وكل منكم يبدأ بنفسه ثم بأسرته ومن بجواره ثم بكل من يلقاه. سلم على من عرفت وعلى من لم تعرف. أفشوا السلام.. ومجتمعنا محتاج جدًا لإفشاء السلام.

هناك أجواء حرب تجاذب بين الناس وهناك إشعال للنيران.. نحتاج إلى تهدئة الأوضاع

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 199، انظر: ابن كثير: 3/ 530، والطبري 326/13، والقرطبي 344/7، وفي ظلال القرآن 345/3، والتحرير والتنوير 225/9.

(2) سورة آل عمران، الآية: 104، انظر: ابن كثير: 2/ 91، والطبري 90/7، والقرطبي 165/4، وفي ظلال القرآن 410/1، والتحرير والتنوير 36/4.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 72، انظر: ابن كثير: 6/ 488، والطبري 336/20، والقرطبي 214/8، وفي ظلال القرآن 35/6، والتحرير والتنوير 247/21.

تهدئة النفوس بطمأنة الناس على أن بلادنا تسير نحو الخير إن شاء الله وأن غدنا خير من يومنا كما أن يومنا خير من أمسنا.

أما أولئك الذين ينفخون في النيران ويدعون أن البلاد تسير نحو الكارثة وأن الخبز سينفد والأجور ستُحبس والماء سينقطع، فإننا نسألهم: لماذا هذا التشاؤم هل هذا وطننا أم نحن مأجورون عليه. فالرسول ﷺ يقول: **«بشروا ولا تنفروا»**. . ويقول: **«أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»** ويقول عليه الصلاة والسلام: **«أنا زعيم** (أي كفيل) **بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً** (والمراء هو الجدل الذي لا جدوى من ورائه)».

وإذا رأيت أن الحوار تحول إلى مراء أو رأيت القصد منه الإساءة للآخر فاتركه. ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿72﴾﴾[1] كما يقول ﷺ: **«لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً»**.

أحياناً يمزح الشخص بالكذب وهذا خطير.

والإسلام يعلي قيمة الصدق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿119﴾﴾[2]. ويقول ﷺ: **«وما يزال الرجل بصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً. . . وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»**.

فلنكن صادقين ولنرب أنفسنا وأولادنا على الصدق لأن الصدق من أخلاق الإسلام. ومن الصفات الواجبة في الأنبياء: الصدق والأمانة. . وهي صفات واجبة أيضاً كي نتبع الأنبياء. وهكذا قال عليه الصلاة والسلام: قصر في ربض الجنة لمن ترك المراء وقصر وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وقصر في أعلى الجنة لمن له خلق حسن.

هذا الدين مبني على حسن الخلق: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**. هكذا يقول الرسول ﷺ. وقد وُصف بأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق وإذا تكلم يكون صوته بحسب الحاجة. وإذا خاطبنا شخص واحد فلندع صوتنا يرتفع بقدر سماع ذلك الشخص. وإن كنا في مسجد فرادى فلا نحاول أن نسمع أصواتنا كل الناس. فهنا من يقرأ القرآن وهناك

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 72، انظر: ابن كثير: 6/ 130، والطبري 318/19، والقرطبي 82/13، وفي ظلال القرآن 334/5، والتحرير والتنوير 81/19.

قال الإمام الطبري: واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يُستقبح. . .

وقال القرطبي: وكراماً معناه معرضين منكرين لا يرضونه، ولا يُمالِئُون عليه، ولا يجالسون أهله، أي: مروا مرور الكرام الذين لا يدخلون في الباطل.

(2) سورة التوبة، الآية: 119، انظر: ابن كثير: 4/ 229، والطبري 558/14، والقرطبي 278/8، وفي ظلال القرآن 102/4، والتحرير والتنوير 26/11.

من يسبّح وهناك من يصلي. . . فلا داعي أن نستولي بأصواتنا على المكان العام.

علينا أن نجذّر أخلاق الإيثار وأن نشيع الطمأنينة في وسطنا قال ﷺ: «**أفشوا السلام بينكم**» ونشيع السلام والطمأنينة في بيوتنا واجتناب التخويف والكذب وإشاعة الرعب. . نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم لك الحمد حق حمدك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللّهم يا ربنا ويا ولي الصالحين تقبل من عبادك من أمّوا هذه الجمعة يا رب العالمين اللّهم تقبل صلواتهم.اللّهم تقبل دعواتهم اللّهم اغفر لهم ذنوبهم وكفر عنهم سيئاتهم. اللّهم انظر إلى إخواننا في سوريا وفي فلسطين وفي كل مكان يعذب فيه عبادك. اللّهم انظر إليهم بعين رحمتك وفك أسراهم وعاف مبتلاهم وأطعم جائعهم وأمّن خائفهم وسدد رمية المجاهدين. اللّهم عليك بالظلمة والطغاة والجبارين.

اللّهم خذ طاغية الشام ومن والاه أخذ عزيز مقتدر وفرج كربة أهل الشام يا رب العالمين.

اللّهم يا ربنا انصر أهل فلسطين واكتب لنا صلاة في الأقصى محرراً يا رب العالمين.

اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرشد والصدق وحقق بها مطالب شعوبها واجمع قلوب أهلها عليها يا رب العالمين.

اللّهم يا ربنا يا ولي الصالحين اللّهم انتصر لدينك ولأوليائك. اللّهم لا تجعل منا ولا فينا شقيًا ولا محروماً ولا فتاناً ولا مفتوناً. اللّهم نصرك الذي وعدتنا. اللّهم أصلح أزواجنا وأصلح ذرياتنا وأصلح نساءنا وبناتنا واجعلهم منارات الهدى وقرة عين لنا. اللّهم اجعلنا للمتقين إماماً لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

أولصر الوحدة وأسباب الاختلاف[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3] الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام وأكرم بها وأعظم بها من نعمة.

إن من قواعد ديننا الكبرى عقيدة التوحيد. توحيد الله سبحانه وتعالى وهو الخالق بلا شريك وهو الآمر والناهي بلا شريك ومرد الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى.

أي وازع لتوحيد المسلمين:

إن الوجه الآخر لعقيدة التوحيد يتمثل في كونها تحمل الجذع الأكبر لشجرة الإسلام. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿92﴾﴾[4] فبقدر ما تتعمق عقيدة التوحيد عند المسلم بقدر ما يستشعر بأنه جزء من هذه الأمة.. والمسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

---

(1) الجمعة 24 ماي 2013 (245).

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 92، انظر: ابن كثير: 5/ 371، والطبري 523/18، والقرطبي 338/11، وفي ظلال القرآن 233/4، والتحرير والتنوير 141/17.

هذه الوحدة الإسلامية على الرغم من أنه لم تعد لها تعبيرات سياسية اليوم ولم تعد لها دولة تنطق باسم الأمة والواجب ان يكون كذلك.. ومع ذلك ظل المسلمون يشعرون أنهم أمة واحدة من الصين إلى مجاهل إفريقيا.. شعور يضمهم جميعا وعندما يلتقون في الحج يهتفون بهتاف واحد ويطوفون حول محور واحد.. وأجزاء أخرى من الأمة الإسلامية كانت مجهولة ولكن ما إن يقع عليها ضيم مثل إخواننا في البوسنة حتى يكتشف المسلمون أن هناك جرحاً في جسمهم فيهبون من كل مكان. وذلك ما يحصل لسائر الأمة في فلسطين وفي سوريا وفي أنحاء العالم يزداد شعورهم على مر الزمن بأنهم أمة واحدة.

هذه الوحدة الإسلامية لا تنفي الفوارق والاختلافات. وكما أن الوحدة سنة من السنن فكذلك الاختلاف هو أيضاً سنة من السنن. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1].

الوحدة والاختلاف:

في الحقيقة لقد خلقهم للوحدة ولكن هذه الوحدة لابد أن تمر عبر الاختلاف وهي وحدة لا تنكر الاختلاف بل هي تتسع له. وهذه الأمة المترامية لا يمكن أن تكون متشكلة في قالب واحد ولا يمكن أن يكون لها اجتهاد واحد ولذلك كان للاجتهاد مكانة في الإسلام فتعددت المذاهب وتعددت التأويلات، تأويلات القرآن وتأويلات السّنة ولكن كان كل ذلك في إطار وحدة الاختلاف أو في إطار وحدة تتسع للاختلاف. وهذا من سماحة الإسلام إنه الدين الذي أوصى بالسماحة وباستيعاب الآخرين كما دعا إلى عدم التشدد ونهانا عن الغلو ذلك أن الأمة لا يمكن أن تتوحد على رأي واحد أو مذهب واحد أو اجتهاد واحد. ولم تنشأ في الإسلام كنيسة بمعنى جهة ما تزعم لنفسها احتكار تفسير القرآن واحتكار النطق باسم الإسلام. ليس هنالك سلطة دينية بهذا المعنى تقول هذا هو الإسلام وما يخرج عنه كفر. لذلك ظل بَون الاجتهاد في الإسلام مفتوحاً على عدد من المذاهب العقدية والكلامية والمذاهب الفقهية واللغوية والتربوية وكان هنالك من يميل إلى الصوفية ومن يميل إلى مخالفتها ومن يميل إلى الأخذ بقاعدة أصولية ومن يقبل بالاستحسان ومن لا يقبل به ومن يقبل بالقياس ومن ينكره ولكن يُتداول ذلك في إطار الوحدة الإسلامية والأخذ بما هو معلوم من الدين بالضرورة والحلال بين والحرام بين.

في الحقيقة كانت أكبر الاختلافات لدى المسلمين تتمثل في السياسة أكثر منها في الدين لأن الحلال في الإسلام بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات نعم.. لكن المسلمين اتسعت قلوبهم

---

(1) سورة هود، الآيتان: 118 ـ 119، انظر: ابن كثير: 4/ 361، والطبري 15/531، والقرطبي 9/114، وفي ظلال القرآن 4/267، والتحرير والتنوير 12/187.

للاختلافات داخل الطابع الديني، كالتنوع في أشكال الصلاة ومن يضع يده اليمنى على اليسرى فوق الصرة أو من يضع اليمنى على اليسرى فوق الصدر.. أو من يصلي سدلاً.. كلها اختلافات دينية وتتسع قلوب المسلمين لمثلها من قبيل الصلاة والصوم والحج.

لكن الاختلافات الكبرى كانت في السياسة ولذلك يسجل الشهرستاني بقوله: «إن أول ما سُلّ السيف.. إنما سل في قضية الخلافة» والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبثت بالتي تليها، وأول نقضها الحكم وآخرها الصلاة**». ومن المعلوم تاريخيا أن أول خلاف حصل إنما حصل في موضوع الخلافة وسلت السيوف وأهدرت الدماء ولو دققنا الأمر لقلنا بأن الخلافة لا يعود فيها الخلاف إلى أسباب ذاتية أو صراع على السلطة ونحن نعرف رغم ذلك أن آخر ما يخرج من قلوب الصالحين: حب الرئاسة.. حب الرئاسة مغروس في قلوب الناس. يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: في قلب كل بني آدم ميل الى الربوبية، ميل للإنسان إلى أن يكون ربا. لكن التربية الإسلامية تحاول أن تروّض هذه الغريزة وهذا المنزع الطبيعي. هذا أمر مفروغ منه وقد هذبه الإسلام بالتربية وأطّره بقاعدة الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] وهي المؤسسة التي نعود إليها كلما حصل اختلاف باعتبارها مصدر السلطة وصاحبة القرار.

والاختلاف في السياسة يعود في الحقيقة إلى جانب آخر يتمثل في كيفية تنزيل مبادئ الإسلام على واقع معقد.. كيف نصلح أوضاع المسلمين وهي دائما معرضة للفساد. ومن الناس من يرى إصلاح الفساد بقطع الرؤوس واعتماد وسائل العنف سبيلا للقضاء على الاختلاف. ومن الناس من يعتمد أكثر الطرق ليناً من أشكال الإقناع والتربية وكل ذلك يعود الى الاختلاف في فهم الواقع.

حصل في المائة الأولى من بعثة النبي ﷺ وعلى راس كل مائة سنة يرسل الله إلى المسلمين خليفة صالحا. والخليفة الراشد الخامس هو عمر بن عبد العزيز. جاء خلال المائة سنة التي سالت خلالها الدماء الغزيرة حول موضوع الخلافة وانقلب الحكم من راشدي شوري إلى حكم وراثي وأصبحت الأموال دولة بين الأغنياء وأصبحت العائلة الأموية تحتكر الأموال والنفوذ فأرسل الله سبحانه وتعالى خليفة راشدا هو عمر بن عبد العزيز. وقد حاول أن يصلح ويعيد الأمور إلى نصابها ويعيد الأموال المنهوبة إلى المسلمين وطمح أن يعيد الخلافة إلى أصلها أي الشورى لكن لم تدم خلافته أكثر من سنتين.. فقط. وفي عصره نشأت أخطر فرقة في التاريخ الإسلامي وهي فرقة الخوارج التي أدخلت على الإسلام فكرة التكفير وإحلال دماء المسلمين بسبب الخلاف.. عندما أختلف معك أكفرك وأستحل دمك مع أن جريمة قتل المسلم هي من أعظم الجرائم. وما

---

(1) سورة الشورى، الآية: 38، انظر: ابن كثير: 7/ 210، والطبري 454/21، والقرطبي 36/16، وفي ظلال القرآن 326/6، والتحرير والتنوير 23/25.

رأيت آية في القرآن فظّعت جريمة كتفظيع قتل المسلم ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿93﴾﴾[1] أي شيء أكثر من هذا التفظيع والتهويل..؟ بما يؤكد حرمة دم المسلم. لذلك حذر النبي ﷺ بقوله: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراماً**». المسلم بخير ما لم يقع في دم مسلم حتى ولو بكلمة أو بتحريض على دمه أو استحلال له.

شوائب الفتنة:

هذه جريمة كبرى لأن المجتمع الإسلامي ينبغي أن يسوده السلم. والقتال داخل الأمة محرم وممنوع.. والقتال داخل الأمة اسمه الفتنة.. والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[2] والمجتمع الإسلامي ينبغي أن يسوده السّلم وأن يشعر كل مسلم بالأمان بل إن كل من يدخل المجتمع المسلم يجب أن يكون مؤمنا حتى ولو لم يكن مسلما أو دخل بمال فيه شبهة. وهذا ينطبق على كل من تحصل على الأمان ولو من مسلم واحد. وذلك مقبول باعتباره نيابة عن الأمة قاطبة وهو قرار كاف لينال الاحترام من طرف المجتمع المسلم.

يمنهج لنا الإسلام كي ندير خلافاتنا بطرق سلمية وذلك باعتماد الشورى وأن تتسع قلوبنا لجميع الاجتهادات والآراء وأن لا يكون الحسم عن طريق السيف وإنما هو الحوار والتدافع السلمي في المجتمع المسلم بين العلماء والمفكرين والكتاب والأئمة. فكل ما هو اختلاف في الإسلام فسبيله الرجوع إلى القرآن والسنة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3]. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[4].

قلت إن الاختلافات الكبرى هي اختلافات في السياسة.. وعندما جاء عمر بن عبد

---

(1) سورة النحل، الآية: 93، انظر: ابن كثير: 2/ 373، والطبري 9/57، والقرطبي 5/328، وفي ظلال القرآن 2/213، والتحرير والتنوير 5/163.

(2) سورة البقرة، الآية: 191، انظر: ابن كثير: 1/ 523، والطبري 3/565، والقرطبي 2/350، وفي ظلال القرآن 1/158، والتحرير والتنوير 2/201.
قال الإمام الطبري: والشرك بالله أشد من القتل.
وقال القرطبي: أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل.
وقال الأستاذ سيد قطب: إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية، ومن ثم فهي أشد من القتل.
وقال العلامة ابن عاشور: والفتنة إلقاء الخوف، واختلال نظام العيش.

(3) سورة النساء، الآية: 59، انظر: ابن كثير: 2/ 342، والطبري 8/491، والقرطبي 5/258، وفي ظلال القرآن 2/159، والتحرير والتنوير 5/96.

(4) سورة النساء، الآية: 83، انظر: ابن كثير: 2/ 366، والطبري 8/570، والقرطبي 5/262، وفي ظلال القرآن 2/177، والتحرير والتنوير 5/139.

العزيز وأراد أن يصلح كان عليه ضغط شديد من الشباب كي يسرع في الإصلاحات حتى إن ابنه كان يساهم في عمليات الضغط ويقول: يا أبتاه، ما لي أراك متباطئا في الإصلاح وهو لا يبالي من أبيه أن يقتل أو يحرق. والمهم بالنسبة إليه أن يعيد الخلافة إلى أصلها ويعيد الدين إلى جذوره ويعتبر أن الحركة متباطئة.. وكذا الشباب دائما يفعلون. ولكن الرجل الحكيم كان يرد بقوله: يا بنيّ ألم تر أن الله قد ذمّ الخمر في آيتين ولم يحرمها إلا في الثالثة.. بل ربما حرمها في الرابعة لأن الآية الأولى جاءت في قوله تعالى: ... ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾...[1] وكانت المقابلة بين السكر من ناحية وبين الرزق الحسن من ناحية أخرى وهي بداية التوعية.. أي إن هذا العنب: أنتم تتخذون منه إما سكراً أو رزقاً حسناً.. والسكر ليس هو بالرزق الحسن وهي أول إشارة للتنبيه.. والتوعية. أن تصنع من العنب خمراً فهذا ليس رزقاً حسناً.. ثم جاءت الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[2] ثم بعد مدة جاءت الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[3] حتى إذا ما تهيأ المجتمع وأصبح الناس يشربون وبعضهم يمتنع عن الشرب... عندها صار الناس يجأرون إلى الله: قال عمر: «اللّهم بَيّن لنا في الخمر بياناً شافياً» وهكذا فإن مهمة الدولة أن تعمل على إيجاد رأي عام وبمجرد أن يتحقق ذلك عندها فقط يأتي دور القانون. لكن إذا لم يتهيأ هذا الرأي العام فإنه لم يعد للقانون قيمة تذكر.

التشريع ومناخات القبول به:

دولة المدينة كان يرأسها النبي ﷺ ومع ذلك ظلت عملية التوعية وتهيئة الرأي العام لقبول التشريع سارية لأمد طويل. قال أنس: كنت أسقي عدداً من الأصحاب فجاء رجل قال هناك نبأ عظيم قالوا ما هو قال: حرّمت الخمر. قال: خرجنا فوجدنا شوارع المدينة تسيل خمورا. وانتهت العملية بنزول الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ وأضاف ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[4] قال عمر: انتهينا انتهينا.

---

(1) سورة النحل، الآية: 67، انظر: ابن كثير: 4/ 580، والطبري 240/17، والقرطبي 127/10، وفي ظلال القرآن 135/2، والتحرير والتنوير 203/14.

(2) سورة البقرة، الآية: 219، انظر: ابن كثير: 1/ 578، والطبري 320/4، والقرطبي 53/3، وفي ظلال القرآن 209/1، والتحرير والتنوير 338/2.

(3) سورة النساء، الآية: 43، انظر: ابن كثير: 2/ 308، والطبري 331/4، والقرطبي 199/5، وفي ظلال القرآن 132/2، والتحرير والتنوير 60/5.

(4) سورة المائدة، الآيتان: 90 ـ 91، انظر: ابن كثير: 3/ 25، والطبري 334/4، والقرطبي 285/6، وفي ظلال القرآن 134/2، والتحرير والتنوير 21/7.

هكذا حسم الأمر في آية واحدة ولكن بعد تدرج. وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان عليه ضغط شديد من الشباب ومع أنه كان يطمئنهم ويهدئهم ويدعوهم للتريث ومع ذلك نتساءل جميعا ماذا كان مصير عمر بن عبد العزيز؟ لقد مات مسموما من قبل بعض أفراد أسرته الذين رأوا أن نهجه في الإصلاح سيكنس كل ما جمعوا من ثروات وما احتكروا من سلطة ودلالة ذلك واضحة أن المسلمين ـ كما سبق أن ذكرت ـ ليسوا مختلفين في الدين وإنما كان اختلافهم في السياسة بمعنى تنزيل الدين على الواقع. والناس يتصورون أنك بمجرد أن تحصل على السلطة أصبح من واجبك الديني أن تنزل أحكام الإسلام على الواقع كلية وإلا فأنت كافر..

فضلاً عن أن أحكام الإسلام عندهم تقتصر على العقوبات. والعقوبات إنما هي جزء يسير جدا من الدين. ويغيب عنهم أن حكم الإسلام الأساسي هو تحرير الناس من الظلم ومن الفساد والاستبداد ولا يرون أن إقامة العدل هو المقصد الأعلى لشرع الله سبحانه وتعالى ويرون أن هذا الواقع الجديد الذي يدور في دول ما بعد الثورات لا علاقة له بالإسلام. وهم يتجاهلون أن أهم مقصد من مقاصد الإسلام قد تحقق وحققته هذه الثورات وهو فك الأسر. يقول الشيخ علال الفاسي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا تعجبت من المفسرين كيف لم يروا (معاني التحرر) في آية البيّنة [1] ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾[1] أي أن البينة هي التي فكتهم وما كانوا لينفكوا من الظلم ومن الاستبداد ومن الأسر إلا بهذه البيّنة. هذه الثورة فكت عن الأمة قيودها فكت الأسر والأغلال وأطلقت حرية المساجد وحرية الصحافة وحرية الاجتماعات وحرية عقد اللقاءات.. أليس هذا كله من الإسلام؟؟

وما الذي يبرر أن نطلق صفة الطاغوت على هذه الدولة؟

وما هو الطاغوت إن لم يكن الطغيان؟ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾[2] ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾[3] ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[4]. وبما ذا حدّد الله مهمة نبيه النبي ﷺ؟ قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[5] أي يرفع عنهم الآصار

---

(1) سورة البينة، الآية: 1، انظر: ابن كثير: 8/ 456، والطبري 24/539، والقرطبي 20/140، وفي ظلال القرآن 8/76، والتحرير والتنوير 30/467.

(2) سورة العلق، الآية: 6، انظر: ابن كثير: 4/ 437، والطبري 24/519، والقرطبي 20/122، وفي ظلال القرآن 8/71، والتحرير والتنوير 30/434.

(3) سورة هود، الآية: 112، انظر: ابن كثير: 5/ 308، والطبري 15/499، والقرطبي 9/107، وفي ظلال القرآن 4/271، والتحرير والتنوير 12/175.

(4) سورة القصص، الآية: 4، انظر: ابن كثير: 6/ 220، والطبري 19/513، والقرطبي 13/247، وفي ظلال القرآن 5/408، والتحرير والتنوير 20/63.

(5) سورة الأعراف، الآية: 157، انظر: ابن كثير: 3/ 126، والطبري 13/165، والقرطبي 7/297، وفي ظلال القرآن 3/299، والتحرير والتنوير 9/123.

والأغلال و لقد كنا مغلولين مكبلين. والحرية مبدأ عظيم ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور وكذلك إقامة العدل وفك الناس من الأسر ومن الرعب ومن التهديد ومن الابتزاز «ولكنكم ـ كما قال النبي ﷺ ـ قوم تستعجلون». ومن لم يراع السنن فالسنن غلاّبة. ومن يتصور أنه بمجرد قوانين تنزل من فوق يمكن القضاء على الخمر والزنا والفساد والظلم فإنه واهم مجاف للصواب.

إن القوانين التي تصلح الناس هي ذات القوانين التي يطلبها الناس. . أي عندما يتهيأ المجتمع والرأي العام ويطلب القانون عندئذ يكون للقانون دور للإصلاح ويتولى تطبيق ما يتطلبه أغلب الناس لأن الإسلام يطمح إلى الإجماع. والقانون عندما تطالب به الأغلبية وتحميه تكون له قيمة اجتماعية وإلا فهو استبداد ولا ينتج إلا الاستبداد. عندما نفرض الحجاب مثلا كما يحصل في بعض الدول، ما الذي يحصل؟؟ لا يرتفع منسوب الدين عند النساء ولكن يرتفع منسوب النفاق. والنفاق أسوأ من الكفر نحن لا نريد أن نحوّل المجتمع التونسي إلى منافقين يتدينون خوفاً ورعباً من الشرطة وإنما نريد من المجتمع التونسي أن يسير إلى الإسلام وهو ومسلم ويتحسن إسلامه بوعي ذاتي وبرغبة ذاتية وليس بالقهر والخوف لأن الدين والخوف لا يجتمعان مطلقاً ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[1].

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يبصّرنا بمواضع الحق وأن يجعلنا جنودا للحق قائمين بالحق خاضعين له.

* * *

(1) سورة البقرة، الآية: 256، انظر: ابن كثير: 1/ 682، والطبري 5/407، والقرطبي 3/279، وفي ظلال القرآن 1/269، والتحرير والتنوير 3/25.

الخطبة الثانية

أي مكانة للرفق في الإسلام؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا والصلاة والسلام على حبيبنا وشفيعنا وقائد دعوتنا محمد رسول الله ﷺ. اللّهم صلّ وسلّم عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واتبع هداه إلى يوم الدين.

أي مكانة للرفق في الإسلام؟:

أمر نبينا عليه الصلاة والسلام الناس بالرفق وليس بالعنف وقال: **«إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على ما سواه»**. لأنه يثق أن الله خلق الناس على فطرة طيبة وأن مهمة الداعية أن يصل إلى ذلك الرصيد رصيد الفطرة ويحييه وينعشه وليس أن يتسلط عليه الناس من الخارج.

أتى شاب إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أتأذن لي في الزنا؟ والنبي جالس مع أصحابه وقد تجرأ على هذا السؤال بما يبعث برسالة على أن النبي عليه الصلاة والسلام ربّى الناس على الحرية ولم يربّهم على الخوف. عندها غضب الصحابة وهموا به. لكن النبي هدّأهم وقال له: **«أدن مني»**. أدناه منه ولم يطرده بل وضع يده على صدره وقال له:

«يا بني أتحبه لأمك؟».

فقال: لا يا رسول الله.

قال: **«كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم»**.

قال: **«أتحب لأختك أن تكون زانية؟»**.

قال: لا، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: **«كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم»**.

قال: **«أتحبه لعمتك؟ أتحبه لخالتك؟»**.

وفي كل مرة يقول: لا والله.

قال: **«كذلك لا يحبه الناس»**.

ثم دعا له النبي ﷺ أن يغفر ذنبه ويطهر قلبه ويحصن فرجه. ولم يخرج الشاب من تلك الحلقة إلا والرسول ﷺ أحب الناس إليه وأبغض الأشياء عنده الزنا. ولم يكتف ﷺ بالدعاء فقط وإنما عمل على تزويجه، وزوّجه. وفي معركة بدر في ما أعتقد تفقد ﷺ القتلى وسأل عن عدد من الصحابة ثم سأل عن «جليبيب» فبحثوا عنه فوجدوه شهيدا وحوله سبعة قد قتلهم من الكافرين.

هذا من تربية النبي ﷺ التي تعتمد على الرفق وعلى الثقة بأن الإنسان فيه بذرة خير مهما بدا لك منه من عيوب ومساوئ حتى وإن كان زانيا أو فاسدا أو كافرا لا يذهب بخلدك لحظة بأنك في الجنة وهو في النار. ولا أحد يضمن لنفسه الجنة وكما قال الرسول ﷺ: **«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. . .»** والعكس أيضاً صحيح: **«وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللّهم يا واحد يا أحد يا مالك يا صمد يا من قلوب الخلق بين إصبعيه الكريمين يقلبها كيف يشاء اللّهم وحّد أمة محمد ﷺ على طاعتك وإعلاء كلمتك.

اللّهم آخي بين أفراد أمة محمد ﷺ.

اللّهم لا تجعل فينا ولا منّا فتّانا ولا مفتونا ولا شقيا ولا محروما واجمع قلوبنا على البر والتقوى.

اللّهم هذه قلوبنا بين إصبعيك الكريمين تقلبها كيف تشاء اللّهم طهرها من الشرك والرياء ومن الشحناء والبغضاء ومن النفاق ومن إيثار الدنيا واملأها بنورك الذي لا يخبو.

اللّهم يا إلهنا يا ولي الصالحين، اللّهم أدرك المؤمنين بلطفك ورحمتك في سوريا وفي فلسطين وفي كل مكان يستضعف فيه عبادك.

اللّهم بارك في ثورات المسلمين وول عليها خيارها.

اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرشد والصدق وحقق بها آمال شعوبها وأحبط بها كيد أعدائها يا رب العالمين.

اللّهم اختم بالصالحات أعمالنا واجعل اللّهم أسعد أيامنا يوم نلقاك يا رب العالمين.

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً.

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

* * *

(1) سورة النحل، الآية: 90، انظر: ابن كثير: 4/ 595، والطبري 279/17، والقرطبي 165/10، وفي ظلال القرآن 484/4، والتحرير والتنوير 254/14.

آفاق التجديد في الشريعة الإسلامية[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الدين بين الأمانة والتبليغ:

أرسل الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ولم يكن النبي الأول وإنما كان خاتم سلسلة من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وختم النبوة حدث عظيم لأنه إعلان عن أن البشرية قد ترشدت ووصلت مرحلة قابلة أن تقرأ الخرائط وتعطيها المؤشرات الكبرى ولذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع أوكل مهمة هداية البشرية إلى هذه الأمة وقال إنه ترك فيها ما إن تمسكت به لن تضل أبداً. .

ترك لها خارطة الطريق بحيث لو اهتدت بهديها لن تضل الطريق لذلك قال ﷺ: «**فليبلّغ**

---

(1) الجمعة 7 جوان 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

الشاهد منكم الغائب» وأوكل المهمة إلى الأمة بمعنى أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان وهو يتضمن خارطة الطريق كما يتضمن الإرشادات الكبرى إذا اهتدى بها الناس فلن يضلوا الطريق ولن يحيدوا عن المعايير الكبرى من خير وشر وحق وباطل وهداية. . ومعنى ذلك أن البشرية لم تعد محتاجة إلى أنبياء ولكنها ستظل أبداً محتاجة إلى مرشدين وإلى حكماء ودعاة وبذلك أصبح كل مسلم يحمل هذه الأمانة: **«فليبلغ الشاهد منكم الغائب»** وكل على قدر علمه مطلوب منه أن يكون داعياً ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] **«بلغوا عني ولو آية»** فلا أحد يزهد فيما عنده من العلم وكل منا عنده قدر من العلم من القرآن والسنة والمعرفة ولذلك فإنه مطلوب أن يبلغ. وهذا الدين الذي هو صالح لكل مكان وزمان في حاجة إلى تجديد ولذلك ورد في سنن أبي داود: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»** فلم نعد محتاجين إلى أنبياء وإنما نحن محتاجون إلى مجدّدين.

مقاربات حول «التجديد»:

فما هو التجديد ـ هذا العمل الذي حل محل النبوة ـ بمعنى أن البضاعة صالحة لكنها تحتاج لمن ينفض عنها الغبار. وتجديد الدين هو العودة به إلى أصله وعندما نقول: نجدد بناء تاريخياً أثرياً بمعنى أن نعيد بناءه على أصله ولا يمكن أن نجدد معلماً إسلاميًا بتحويله إلى هندسة رومانية مثلاً. . وهذا ليس تجديدا وإنما هو استبدال ومسخ وإنما تجديد البناء الأثري هو أن نعيده إلى أصله.

للتجديد مهمة رئيسية والدين يبقى ببقاء التجديد. وفي كتاب لمحمد إقبال سماه **«تجديد التفكير الديني في الإسلام»** بمعنى إعادة التفكير في الإسلام. بمعنى كيف نفكر في الإسلام من جديد وكيف نعيده إلى أصله وليس كيف نبدّل الإسلام. هكذا ننزع عنه البدع والخرافات التي علقت به من جراء أوهام الناس وهم كثيرا يخلطون معارفهم وتقاليدهم بالدين. فالدين معرض للانحراف ويحتاج إلى تجديد بنفض الغبار عنه والتحريف والأباطيل لإعادته إلى أصله. هذا الأصل ضمنه لنا الله سبحانه وتعالى. فالأصل لن يضيع وقد ضمن سبحانه وتعالى أنه حافظ لكتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[2] فالنص الأصلي والخريطة الأصلية والمثال المعماري حاضر ويمكنك أن تقارن بين ما حصل من تحريف وبين المثال الأصلي لهذه العمارة التي تجددها. وهذا معنى من معاني التجديد وهو أن تعيد الدين إلى أصله بتحريره من الأوهام ومن الخرافات وكم علقت بدين الإسلام من خرافات وأوهام.

---

(1) سورة النحل، الآية: 125، انظر: ابن كثير: 4/ 613، والطبري 321/17، والقرطبي 200/10، وفي ظلال القرآن 497/4، والتحرير والتنوير 96/14.

(2) سورة الحجر، الآية: 9، انظر: ابن كثير: 4/ 527، والطبري 68/17، والقرطبي 5/10، وفي ظلال القرآن 299/6، والتحرير والتنوير 20/14.

إن المعارف البشرية تتطور باستمرار ولكل عصر معارفه ولكل بيئة مشاكلها وتحدياتها فتجديد الدين هو إعادة الوصل بينه وبين الحياة وبينه وبين المعارف الجديدة حتى لا يبدو مستهجنا أو غريبا أو مناقضا للعقل. فإعادة الوصل بين الدين والحياة، بين الدين والمعارف المستجدة، بين الدين والمشكلات الجديدة أن تقدم لها حلولا جديدة. والقرآن فيه شفاء للناس.

إنّ صيدلية الإسلام فيها دواء لكل شيء لكنها تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على تشخيص الداء وأن يأخذ من صيدلية الإسلام الدواء المناسب. ومن مظاهر التجديد أن نبحث في صيدلية الإسلام عن الأدوية وفيها الأدوية الشافية لكل الأمراض وإنما تحتاج إلى حكماء وإلى أطباء وصيادلة قادرين على تشخيص الدواء وذلك بالبحث في صيدلية الإسلام عن أنسب دواء.

لا بد إذن من إعادة الوصل بين الدين والحياة بين الدين ومعارف كل عصر، بيت الدين ومشكلات كل بيئة من أجل استحداث واستنباط الحلول المناسبة انطلاقا من صيدلية الإسلام.

لا حاجة لفاتحين جدد:

ونحن في هذه البيئة التونسية منذ أربعين سنة حتى الآن حصل تجديد في الإسلام بما أعاده إلى الحياة وقد كانت الجسور قد انقطعت إلى حد كبير بين الدين وبين الحياة ولذلك نرى تجديدا في مستوى العقائد وبما علق بها من بدع وخرافات واليوم الذين يتحدثون عن السلفية في هذه البلاد وإذا كانت السلفية تعني العودة إلى أصول الإسلام فإن هذه العملية قد أنجِزت إلى حد كبير وقد تطهرت عقائد التونسيين وتطهر الدين من كثير من الخرافات والأوهام والتمسح بالأضرحة والاعتقاد في غير الله سبحانه وتعالى، وهذا تجديد في مستوى العقائد التقليدية التي امتزجت بكثير من الأوهام. وعمل التجديد في المساجد على تنقية العقائد من الخرافات والأوهام ولكن دون مبالغة ولا تكفير للناس لأن هذا الشعب ظل مسلماً وما احتاج بعد الفتح الأول إلى فاتحين جدد.

شعبنا ظل مسلماً ولكن هذا الدين يحتاج بطبيعته إلى تنقية مستمرة حتى لا يخلط الناس بين دين الله وبين أوهام البشر وخرافاته.

من معالم التجديد:

لقد حصل تجديد في مستوى العقائد أيضاً في هذه البلاد وأنجز عن طريق المجادلات التي حصلت في الجامعات وفي المدارس وفي مراكز الفكر بين الفكرة الإسلامية وبين الأفكار الوافدة والواردة والتي كثير منها فيها إنكار لله سبحانه وتعالى وفيها تحد للعقائد الدينية فقام عمل تجديدي في الجامعات وفي المدارس وفي مستوى الفكر للشهادة بالعقل والحجة بأن الإسلام هو دين الحق. فكانت مجادلات مع الماركسيين ومع الوجوديين ومع أنواع العلمنة التي جاءت لتحل محل الإسلام وتشكك في عقائد الإسلام وأنها عقائد مخلفة للعلم والعقل. التجديد الذي حصل في

البلاد أعاد للإسلام مكانته على أنه دين العقل ودين الحجة ودين العدالة الاجتماعية ودين الرقي. وهذا عمل تجديدي على صعيد النخبة ولذلك نرى اليوم قطاعا واسعا من المتعلمين في هذه البلاد يؤمون بيوت الله سبحانه وتعالى في حين أن القطيعة كانت قد حصلت ين الحداثة وبين عالم الإسلام. والحركة الإسلامية مدت جسوراً بين الحداثة وبين عالم الإسلام وأعادت الثقة لدى المتعلم التونسي أن الإسلام دين العلم ودين العقل ودين العدل ودين الحداثة ودين الحرية وهذا تجديد مهم.

«يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» واتجه تفسير هذه المعاني إلى الأفراد فظل البحث في كل عصر عن عالم معين فتحدثوا عن عمر بن عبد العزيز وتحدثوا عن الإمام مالك وتحدثوا عن أبي حنيفة وعن الغزالي وابن تيمية واختلفوا في ذلك وليس في الحقيقة هنالك حاجة للبحث عن افراد. والتاريخ لا يصنعه أفراد وإنما تصنعه مشاريع وتصنعه جماعات. وهل يمكن لفرد أن يجدد أمر هذا الدين ما لم يظفر فكره بجماعة تحمله وتحوله إلى حركة اجتماعية وإلى حركة سياسية.

هذا تجديد فكري إذن حصل في هذه البلاد طهر عقائد الإسلام من الشركيات ومن الكفريات ومن البدع. تجديد فكري أعاد الثقة بالإسلام لدى طبقة واسعة من المتعلمين وذلك رغم القمع الشديد. وحصل أيضاً تجديد سياسي واقتصادي واجتماعي إذ ربطت الفكرة الإسلامية بالفكرة الديمقراطية فأصبح المسلم لا يرى أي تناقض بين العمل السياسي الديمقراطي وبين عقيدته الإسلامية باعتبار أن النظام الإسلامي نظام شوري وأن السلطة في الدولة هي للجماعة وللشعب وأنه لا شرعية للحاكم إلا بما يستمده من قبول من الناس به وأن طرح التناقض بين الحرية وبين الإسلام أو بين الديمقراطية والإسلام لا أصل له في هذا الدين.

إنما الدين هو هذا الفضاء العام الذي يتحرك فيه المسلم بحرية. ليس هناك في الحركة الإسلامية نقاش حول الدين يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[1] المسلمون لا يناقشون الدين وإنما يناقشون كيف يطبّقونه، كيف ينزّلونه في الأرض وكيف يعيشونه أي إن اختلاف المسلمين في الحقيقة ليس في الدين وإنما هو في السياسة بمعنى كيف ننزل هذا الدين في الواقع هل نتّبع الطرق السلمية أم طرق العنف هذا مجال للنقاش لكن المسلمين لا يناقشون ربهم ولا يجادلونه وإنما إذا جاءهم الأمر من الله سبحانه وتعالى قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. وحصل في هذه البلاد تجديد مهم في الفكر السياسي ربط الإسلام بالحرية وطمأن الناس أنه لا خطر يأتيهم من الحرية وإنما يأتي الخطر كل الخطر من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 159، انظر: ابن كثير: 2/ 148، والطبري 7/ 343، والقرطبي 4/ 249، وفي ظلال القرآن 1/ 476، والتحرير والتنوير 1/ 400.

ذكر الإمام الطبري أن في قراءة علي رضي الله عنه: (إن الذين فارقوا دينهم)، قال: وكأن علياً رضي الله عنه ذهب بقوله: (فارقوا دينهم) خرجوا فارتدوا عنه، من المفارقة.

الاستبداد. كل الخطر على الإسلام إنما يأتي من الجور ومن القهر ولا يأتي من الحرية. الحرية خير كلها. نحن معشر المسلمين نؤمن أن الإسلام دين الفطرة وأنه إذا قدّم للناس من وجه صحيح فسيقبلون به لم يؤذ الإسلام كما أوذي من الاستبداد ولذلك نرى كثيرا من المسلمين فروا من بلاد الإسلام إلى البلاد الغير الإسلامية. لم يفروا من الإسلام وإنما فروا من الجور ومن الاستبداد ولم يفروا طلبا للكفر وإنما طلبا للحرية. وقديما أصل علماء الإسلام بأن الله سبحانه وتعالى ينصر الدولة العادلة وإن تكن كافرة ولا ينصر الدولة المسلمة الظالمة فمدار نصرة الله سبحانه هي العدل وحيث العدل حيث شرع الله وحيث الظلم فهناك الكفر. ولذلك فإن التجديد الذي حصل في البلاد تجديد مهم إذ ربط الإسلام بالحرية وأنه حرب على الاستبداد وروج للشرعية من أن الدولة مصدرها الوحيد هو ما تأخذه من قبول عام من الناس. كما ربط بين الإسلام وبين العدل وهو مبدأ أصيل في الإسلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2] إن الله يأمر بالعدل ولا يأمر بالظلم. والتجديد الذي حصل في البلاد إذن كما ربط بين الدين وبين العقل ربط بين الدين والحرية والديمقراطية وربط بين الدين وبين العدالة الاجتماعية والإسلام حرب على الفقر وكاد الفقر أن يكون كفرا.

هذا التجديد الذي حصل في البلاد مكّن من فضل الله سبحتنه وتعالى وهيأ الإسلام ليكون فاعلا في القطاعات الاجتماعية المهمّة وفي القطاع السياسي والقطاع الثقافي والقطاع النفابي ولا يزال الأمر يحتاج إلى تعميق وتوسيع لهذا التجديد حتى تكون فعاليات المسلم كلها الفنية منها والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية كلها تنطلق من عقيدته ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[3].

والسلام عليكم ورحمة اله تعالى وبركاته.

* * *

(1) سورة الحجر، الآية: 9، انظر: ابن كثير: 4/ 527، والطبري 68/17، والقرطبي 5/10، وفي ظلال القرآن 299/6، والتحرير والتنوير 20/14.

(2) سورة النساء، الآية: 135، انظر: ابن كثير: 2/ 433، والطبري 9/ 301، والقرطبي 410/5، وفي ظلال القرآن 258/2، والتحرير والتنوير 224/5.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 162 ـ 163، انظر: ابن كثير: 3/ 380، والطبري 283/12، والقرطبي 151/7، وفي ظلال القرآن 177/3، والتحرير والتنوير 200/8.

الخطبة الثانية
أدعية للمسلمين

بسم الله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1]. وقال ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».**

إن ما يعانيه إخواننا في بلاد الشام في سوريا من حيف وجور وعمليات سحق ليستحق منا التضامن الكامل والاستشعار بأن الأمة مضامة وبأننا في شدة وكرب وأن المسلمين حيث ما كانوا يجب أن يتضامنوا مع إخوانهم وما يلاقونه على يد ظالم متعسف جبار مدعوم من قوى متجبرة ظالمة طائفية. هذا الأمر يحتاج منا أن نعلي صوتنا بالنكير وأن نعبر عن أقصى حالات التضامن مع إخواننا المظلومين. هناك كرّ وهناك شدة وهناك سحق وتدمير لعشرات الآلاف بل مئات الآلاف نسأل الله أن ينتصر للمستضعفين من إخواننا السوريين وأن يمدهم بمدد منه عظيم وأن يربط على قلوبهم ويكفكف دماءهم ودموعهم وأن يجعلنا نصرة لهم وردفا إن شاء الله.

اللّهم وفقنا لما تحب وترضى.

اللّهم اجعلنا من عبادك الصالحين.

اللّهم أحي منا الإيمان اللّهم أحي بنا الإسلام.

اللّهم اجعلنا مجددين في هذا الدين يا رب العالمين.

اللّهم اجعلنا ردءا لأوليائك حربا على أعدائك واجعل المسلمين متضامنين متحابين متباذلين متعاونين يا رب العالمين.

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 10، انظر: ابن كثير: 7/ 373، والطبري 297/22، والقرطبي 322/16، وفي ظلال القرآن 489/6، والتحرير والتنوير 213/26.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللّهم اجعل بلدنا هذا وبلاد المسلمين آمنا مطمئنا سخاء رخاء يا رب العالمين.

اللّهم يا ربنا يا ولي الصالحين: اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرشد والصدق وول عليها خيارها يا رب العالمين. اللّهم أجر على يدها الخيرات العظيمات وأحبط كيد أعدائها يا رب العامين.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

العقود والمواثيق ودستور الدولة في الإسلام[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3].

ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أوصيكم ونفسي بتقوى الله فإن خير ما أوصى به المسلم أخاه المسلم تقوى الله فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا.

العقود والمواثيق جزء من نظام الحياة:

أقام الإسلام نظام العلاقات البشرية على أساس العقود والمواثيق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[4] ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿34﴾﴾[5]. إن أول عهد هو العهد بين

---

(1) مونبليزير 28 جوان 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيات: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

(4) سورة المائدة، الآية: 1، انظر: ابن كثير: 2/ 6، والطبري 449/9، والقرطبي 31/6، وفي ظلال القرآن 305/2، والتحرير والتنوير 74/6.

(5) سورة الإسراء، الآية: 34، انظر: ابن كثير: 5/ 74، والطبري 444/17، والقرطبي 249/2، وفي ظلال القرآن 19/5، والتحرير والتنوير 97/15.

الإنسان وربه وهو الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1] وأخذ الله الميثاق على البشرية كلها أن تعبده ولا تشرك به شيئاً وأول ميثاق هو لا إله إلا الله محمد رسول الله والمسلم يجدد هذا الميثاق بينه وبين ربه سبحانه وتعالى أن يعبده لا يشرك به شيئاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2].

هذا هو الميثاق الأول وهو بين الإنسان وبين ربه وميثاق آخر بين الناس أو بين المؤمنين فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**» فأصبح دم المسلم وعرضه وماله حراماً. وقال ﷺ في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا**» فالمؤمنون متعاقدون على أن يحمي بعضهم بعضا وأن يحموا أعراض بعضهم بعضاً.

وهناك ميثاق بين المؤمنين والكافرين أيضاً وهو ميثاق إنساني فالنبي عليه الصلاة والسلام في مكة تمنى أن لو يوافق أهل الجاهلية على عقد كانوا وقعوه سابقا: وهو أن لا يظلم أحد وأن لا يؤكل مال أحد بباطل. فهناك ميثاق إنساني وهو الذي يسمى في العصر الحديث مواثيق حقوق الإنسان والمعاهدات الدولية.

والنبي عليه الصلاة والسلام عندما منّ الله عليه بالتمكين انتقل إلى المدينة وكانت تسمى يثرب وتحولت إلى المدينة بالألف واللام بمعنى المدينة المثالية والنموذج المثالي. وأول ما فعله ﷺ هو أن أقام المسجد وبما أن المدينة كان سكانها مؤمنين وكافرين لم يصدر قرار بطرد الكافرين منها حتى تتحول مدينة خالصة للمسلمين فليست هذه سياسة الإسلام وإنما عقد ميثاق أو دستور سمّي «الصحيفة» وكان من سكان المدينة اثنا عشر قبيلة يهودية متمكنة كما كانت هناك طوائف من المشركين والمنافقين. عقد النبي عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء جميعا ميثاقا أو عقد تعايش ينظم التعايش داخل هذا المجتمع.

الدستور في الإسلام:

هذا المجتمع يقوده نبي ولكن سكانه ليسوا كلهم مسلمين فمنهم المسلم ومنهم اليهودي ومنهم المشرك أصبح هؤلاء جميعا في دولة النبي ﷺ مواطنين وأصبحوا يمثلون أمة واحدة يساهمون جميعا في نفقات الدفاع وأن يدافعوا عن هذه المدينة تجاه أعدائها والذين لم يلتحقوا من المسلمين ممن بقوا في مكة وتشتتت أموالهم وأرواحهم وقد سماهم القرآن بالمستضعفين لم يكونوا قادرين على الهجرة ومنهم من ضعف أو عزت بهم أموالهم. هل أصبح هؤلاء مواطنين في دولة

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 81، انظر: ابن كثير: 2/ 67، والطبري 550/6، والقرطبي 124/4، وفي ظلال القرآن 25/2، والتحرير والتنوير 297/2.

(2) سورة التوبة، الآية 111، انظر: ابن كثير: 7/ 332، والطبري 498/14، والقرطبي 266/8، وفي ظلال القرآن 81/4، والتحرير والتنوير 37/11.

المدينة؟ الجواب: لا نجد في دولة المدينة يهوديا مواطنا بينما الذي لم يلتحق بالدولة الإسلامية هو مسلم لم يصبح مواطنا بعد. ولذلك جاء في سورة الأنفال [72]: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[1] (هم المسلمون من المستضعفين الذين بقوا في مكة إذا وقع عليهم اي اضطهاد ليس من الواجب عليكم نصرتهم ولكن تنصرونهم بقدر استطاعتكم) ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[2].

وقد كان هناك ميثاق بين سكان مكة من قريش الكافرة في ذلك الوقت وبين دولة المدينة. وهذا الميثاق هو الذي سمّي صلح الحديبية بمعنى أنه أي مسلم يعيش في مكة يريد أن يلتحق بدولة المدينة يقع رده إلى قريش والعكس غير صحيح وإذا كان هناك مسلم أراد أن يلتحق بقريش لا يرد، ولذلك قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾. معنى ذلك أن عقود الدولة المسلمة ومصالح الدولة المسلمة لها الأولوية على حرق مسلم هنا ومسلم هناك بمعنى أن الرعاية الواجبة على الدولة الإسلامية وهي مسؤولة قبل كل شيء على مواطنيها. ومن هم مواطنوها؟ هم سكان الدولة سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. بينما المسلمون الذين لم يلتحقوا بالدولة عليها مناصرتهم ولكن بحسب الوثيقة أو بحسب عدد من المواثيق وإذا كان هناك مثلاً مسلمون بفرنسا تم اضطهادهم من طرف الدولة الفرنسية هل يستدعي ذلك أن نعلن الحرب على فرنسا بسبب ذلك؟ ليس بالضرورة لأنه إذا كانت هنالك مواثيق مع فرنسا واعتراف متبادل ومصالح فمصالحنا لها الأولوية على مصالح تلك الأقلية المسلمة إلا إذا أرادت تلك الأقلية أن تلتحق بالدولة المسلمة.

بمعنى أن سياسات الدولة المسلمة تقوم على مواثيق وعلى مصالح. فهناك معنى للمواطنة وهي أن سكان الدولة يملكون ويتمتعون بنفس الحقوق بقطع النظر عن كونهم مسلمين أو غير مسلمين ولذلك كان اليهود مواطنين في المدينة المنورة ولكن متى تم إخراجهم؟ لقد أخرجوا لا بسبب دينهم وإنما بسبب نقضهم للميثاق ونقضهم العهد بالدفاع عن المدينة لأنه عندما جاءت قريش غازية للمدينة في غزوة الأحزاب فتح اليهود أسوار المدينة وأبوابها للغزاة وعندئذ تم عقابهم عقابا شديدا. وهي ليست جريمة دينية ولكنها جريمة سياسية وتسمى جريمة الخيانة العظمى والخائن يمكن أن يكون كافرا كما يمكن أن يكون مسلما. ومثل ذلك حاطب ابن أبي بلتعة لمّا أفشى خطة النبي لفتح مكة قال عمر بن الخطاب: اقتله يا رسول الله لأنه أفشى السر فهو خائن.

أردت أن أقول إن دولة المدينة التي أسسها النبي عليه الصلاة والسلام قامت على دستور أعطى حقوق المواطنة لكل سكان المدينة مسلمهم وكافرهم ولذلك ونحن الآن نكتب دستورا

---

(1) سورة الأنفال، الآية 72، انظر: ابن كثير: 4/ 95، والطبري 81/14، والقرطبي 55/8، وفي ظلال القرآن 445/3، والتحرير والتنوير 83/10.

(2) سورة الأنفال، الآية 72، انظر: ابن كثير: 4/ 95، والطبري 81/14، والقرطبي 55/8، وفي ظلال القرآن 445/3، والتحرير والتنوير 83/10.

ينبغي أن نستشعر أننا نحيي سنة نبينا عليه الصلاة والسلام وهذا ليس بالجديد فأول دولة إسلامية قامت على أساس دستور يسمى الصحيفة وقد وقّع النبي هذا الدستور مع كل قبائل المدينة المسلم منها والكافر. فكانت دولة النبي ﷺ دولة دستورية قامت على أساس المواطنة بحيث إن كل سكان المدينة يتمتعون بحقوق المواطنة.

ينبغي أن نستشعر أننا نحيي سنة نبينا عليه الصلاة والسلام أن نسنّ دستورا يعطي حقوق المواطنة لكل التونسيين بالتساوي بقطع النظر عن مستوى تدينهم كما ينبغي أن نستشعر أهمية اللحظة التاريخية. والشعوب لا تكتب دساتيرها بشكل يومي وليس دائما تتمتع الشعوب بحرية كتابة دستورها وتشارك فيه بكل فئاتها. ينبغي أن نستشعر أننا نعيش عرسا وأن الأجيال القادمة ستقول يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ليتني عشت لحظات الثورة ورأيت تلك الأيام التي يكتب فيها دستور تونس الذي سيعمّر لعشرات السنين القادمة إن شاء الله. . كما ينبغي أن نستشعر أهمية أن كنا شهودا وعشنا هذه الفترة التي منّ فيها المولى سبحانه وتعالى على تونس بأن تحررت من نظام الطغيان والفساد والجبروت وأنها قامت دولة على أساس الانتخاب الحر النزيه وأنها تكتب دستورا بكل فئاتها وبكل إرادتها.

وفي الحقيقة نحن نعيش عرسا تتمنى الأجيال القادمة لو عاشته مثلما تمنت الأجيال التي جاءت بعد النبي ﷺ. لكن مع الأسف هنالك من يحاول تحويل هذا العرس الذي نعيشه إلى جنازة أو يقولون تلميحا وتصريحاً: إن كل شيء في هذا البلد متجه نحو الكارثة والبلاد كلها تعيش في ظلام ويدفعون الشعب التونسي إلى أن يندم على القيام بالثورة وعلى طرد المخلوع وعلى إيقاف القمع الذي كان سائدا في هذا البلد من زوار آخر الليل والصحافة الهجينة التي تسبح ليل نهار بحمد الطاغية وهي الآن نريد أن تمجد الماضي التعيس كما تريد أن تبث الظلام الضباب والغبار من أنكم أيها التونسيون أخطأتم عندما أطحتم بالطاغية وجئتم بالحرية وأصبح لكم الحق أن تكتبوا دستوراً.

ينبغي أن لا نسمع لهم بذلك.

لا إكراه في الدين:

واليوم عندما يكتب ممثلو الشعب بعد استشارة كل الفئات الشعبية ومع المجتمع المدني ومع الأحزاب ومع الخبراء نراهم اليوم يكتبون دستورا يؤكد على أمرين أساسيين: مبدإ الحرية ومبدإ الإسلام وهما صنوان. والحرية تسبق الإسلام لأنه لا معنى للإسلام بدون حرية كما يقول الإمام مالك: «لا طلاق على مكره» فطلاق المكره لا معنى له وكذلك إيمان المكره لا معنى له أيضاً لأن المبد «لا إكراه في الدين» هو مبدأ أساسي فمن سلبت حريته رفع عنه التكليف قال ﷺ: **«رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»** ولذلك لا إيمان للمكره والحرية تسبق الإسلام وتسبق الشريعة بل هي أكبر.

معنى من معاني الشريعة: منذ أسبوعين كان هناك ندوة حول مقاصد الشريعة في 6 جوان بمناسبة الذكرى 32 سأل شاب: قضيتم سنة وأنتم على سدة الحكم فماذا طبقتم من الشريعة؟ وهو سؤال استنكاري بمعنى أنكم لم تطبقوا الشريعة.

أجبته: هذا الذي تقوله أنت وهذا الذي نفعله هو الشريعة عينها، إذ لو لم تكن آمناً اليوم ولو لم تكن تعيش في ظل الحرية هل كنت ستجروئ على هذا السؤال؟ ما كنت لتجروئ على هذا السؤال وما كنت تعتقد بعد هذا السؤال أنك ستعود إلى بيتك آمناً مطمئناً. هذه الثورة المباركة حققت معنى عظيما من معاني الشريعة وهو معنى ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[1]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[2]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: 99]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾...[3]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5]. فمعنى الحرية مستفيض في القرآن الكريم لذلك ينبغي أن نستشعر بأن الإسلام كما يقول العلماء (سيد قطب والمودودي وغيرهما) يؤكدون أن الإسلام ثورة تحررية شاملة حررت العقل من الخرافات ومن الأوهام كما حررت المجتمع من الدكتاتوريين ومن الظلمة ومن الفاسدين وأقامت حكم العدل والقانون لذلك نحن اليوم أحرار في مساجدنا أحرار في مؤسساتنا في بيوتنا وفي جامعاتنا وفي مدارسنا وفي صحافتنا وفي قضائنا وهذا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة وهو مقصد الحرية ولذلك فإن هذا الدستور الذي يكتبه ممثلو الشعب بعد استشارة واسعة يعبر عن هذه الحرية كما يعبر عن مقصد عظيم من مقاصد شريعتنا.

ينبغي أيها الإخوة والأخوات أن لا يساورنا أي شك وأي خوف من الحرية لا خوف على الإسلام من الحرية ولا يأتي تهديد للإسلام إلا من الاستبداد وإن العدو الأعظم للإسلام هو الاستبداد.

---

(1) سورة يونس، الآية 99، انظر: ابن كثير: 3/ 253، والطبري 15/211، والقرطبي 8/385، وفي ظلال القرآن 4/181، والتحرير والتنوير 11/235.

(2) سورة البقرة، الآية: 256، انظر: ابن كثير: 1/ 682، والطبري 5/407، والقرطبي 3/279، وفي ظلال القرآن 1/269، والتحرير والتنوير 3/25.

(3) سورة الغاشية، الآية: 22، انظر: ابن كثير: 8/ 388، والطبري 24/389، والقرطبي 20/37، وفي ظلال القرآن 8/30، والتحرير والتنوير 30/306.

(4) سورة القصص، الآية 56، انظر: ابن كثير: 6/ 245، والطبري 19/600، والقرطبي 13/299، وفي ظلال القرآن 5/434، والتحرير والتنوير 20/63.

(5) سورة الكهف، الآية 29، انظر: ابن كثير: 5/ 154، والطبري 18/9، والقرطبي 10/392، وفي ظلال القرآن 5/51، والتحرير والتنوير 15/307.

عرس الحرية:

ولأننا عشنا مدة طويلة تحت القمع وفي السراديب صرنا في ظل الحرية كأننا لم نر جديدا. ينبغي أن نطمئن إلى أن الحرية خير وبركة وأن سلعة الإسلام لا تبور في سوق حرة. ومنذ خرجت الحركة الإسلامية للوجود وهي تطالب بدكان في سوق حرة لتعرض فيها بضاعتها. وهي على يقين من أن يكون لهذا الدكان شأن عظيم لأن سلعة الله غالية ولأن الإسلام دين الفطرة ولأن هذا الشعب مسلم ولا حاجة له إلا أن تفكّ قيوده وأن يزال عنه الاستبداد حتى يتكئ على دين الله أفواجا وأصبح في ظل الحرية أعداد هائلة من الناس يكتشفون الإسلام يأتون إلى الصلاة ويعتادون المساجد وآلاف يتحجبن وحديث عن الاقتصاد الإسلامي وعن مدارس إسلامية وعن كتاتيب وعن جمعيات خيرية والإسلام يزدهر ككل سلعة نظيفة وجيدة لا تخشى المنافسة وإنما تزدهر في ظل الحرية فعلينا أن لا نخشى من الحرية لأن الإسلام هو دين الفطرة وهو دين الشعب.

هكذا ينبغي أن نستشعر أننا في عرس وأن الله تعالى أكرم جيلنا بأن نعيش هذه الأيام العظيمات وتتذكرون تلك الحركة التلقائية: «هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية». لقد أنسونا هذه الكلمة بما تحويها من معان وأنسونا أن أجيالا لاقت ربها متحسرة وكانت تتمنى أن يمد الله لها حتى تعيش هذه اللحظة التاريخية الفارقة التي نعيشها. لقد أنسونا هذه المعاني ونشروا بيننا هذه المشاعر الجنائزية بينما يعيش شعبنا عرس الحرية وعرس الإسلام والديمقراطية والدستور. يحتاج الأمر إلى أن نعي بهذا وأن ننقل هذا الوعي إلى الناس حتى يشعروا بهذه الفرحة وأن ندافع عن ثورتنا وعن مكاسبها وأن نمنع الجذب والعود إلى الوراء والتاريخ ينبغي أن يتقدم إلى الأمام: إلى مزيد من العدل ومن الحرية وإلى مزيد من التنمية ومن الخير.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الخطبة الثانية

نقض وتصويب.. في شهر الصيام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين اللّهم صل عليه كثيرا. اللّهم صل عليه صلاة ترضى بها عنا يا رب العالمين. نحن نستقبل شهرا عظيما فالنبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عمران بن الحُصين سال أحد أصحابه: «هل صمت من سَرَرِ شعبان شيئاً» والسَّرَرُ والسّرار يعني أواخر الشهر ونحن في أواخر شعبان وهو الشهر المقدمة لما هو أعظم وهو شهر رمضان ولا يفوتنا أن نصوم شيئاً من هذا الشهر حتى نستشعر أننا نستقبل شهر الصيام. ونستقبل شهر الصيام بصيام ونودع شهر الصيام أيضاً بصيام. ويحتاج هذا الشهر إلى وفود تستقبله وإلى وفود تودعه.

هكذا يستشعر المسلمون إزاء رمضان هم في شوق إليه وينظمون له استقبالا بالصيام ويودعونه أيضاً بالصيام فهذا ضيف عزيز يحتاج إلى أن تستقبله وإلى أن تودعه بعد ذلك. والضيف العزيز تشيعه وتخرج معه حتى باب البيت هكذا يفعل المسلمون بشهر رمضان. لكننا نحن بماذا نستقبل رمضان الآن.. نشاهد أن الدولة تضع كل إمكانياتها لتخزين الأغذية التي يطلبها الناس في رمضان والويل كل الويل إذا قصرت في ذلك. بل يمكن أن تهتز شرعيتها بسبب نقص في حاجة من حاجيات الطعام.. بمعنى أننا حوّلناه إلى شهر الطعام وليس شهر الصيام.. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ

(1) سورة البقرة، الآية 185، انظر: ابن كثير: 1/ 501، والطبري 3/444، والقرطبي 2/290، وفي ظلال القرآن 1/145، والتحرير والتنوير 2/168.

تَعْلَمُونَ ﴿184﴾ . . .[1] وللأسف يستقبل المسلمون رمضان إما بالإعداد للأطعمة أو بالإعداد للمسلسلات الهابطة وأنواع من الشطح وأنواع من الفسق أو يستقبلون رمضان بالتحركات التي تخل بالأمن العام كما يحصل الآن وفي مصر تتهيأ أعمال للإخلال بالأمن والدفع نحو ضروب من الفتن وفي بلادنا من يتمنى أن يحصل ما حصل هناك وينسون أن بلادنا أنجزت ثورات وأنجزت انتخابات وأفرزت حكومات ومجالس نيابية. ينبغي أن ينسى الناس أن زمن الطغاة من مبارك إلى بن عليّ قد ولّى. نحن في زمن الحكومات المنتخبة وتغييرها ممكن ولكن فقط بالوسائل الدستورية. وبالأمس على سبيل المثال كان هناك نقاش حول إعفاء رئيس الجمهورية. وبذلك قام شعبنا بسابقة لم تحصل في تاريخ البلاد. لم يحصل تقديم لائحة حول إمكانية بقاء رأس الدولة من عدمه. فهذا مشهد عظيم من مشاهد الثورة ومن مشاهد العهد الجديد فينبغي أن نستشعر بالفخر أن هذا يحصل في بلدنا. فالمعنى الحضاري قد حصل سواء قوبلت اللائحة أم رفضت ويكون الشعب سيد نفسه في الإبقاء على رئيسه من طرده. ولكن بطريقة حضارية منظمة عن طريق البرلمان وإذا لم تكن اللائحة قد نجحت فهناك انتخابات مقبلة.

أما التصور أن الحكومات الديمقراطية المنتخبة يمكن أن تسقط في الشارع أو تسقط بالعنف فهذه هي الفوضى وأهلها نسوا أن ثورات قامت وأن انتخابات أنجزت.

منغصات لحارثة:

ولذلك والأمة تتهيأ لرمضان فهؤلاء أرادوا أن يفسدوا عليها فرحتها. ينبغي أن نهيأ لنفسنا بالتوجه إلى الله لنصل ما بيننا عن طريق الحوار وعن طريق التضامن المجتمعي وأن نتفقد عائلاتنا وأقاربنا وكل المجتمع هو قريبنا في الحقيقة ودعم الوحدة الوطنية عن طريق الحوار والتضامن والانضباط بالقوانين وتفعيل برامج التنمية بهذا نتهيأ لرمضان هذا الشهر العظيم.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا.

اللّهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنّا وما أنت أعلم به منّا، أنت الأول والآخر وأنت الظاهر والباطن وأنت على كل شيء قدير، اهدنا لما اختُلف فيه من الحق بإذنك فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

اللّهم يا نصير المستضعفين ويا ولي الصالحين يا من لا يعجزه شيء في السماوات والأرضين اللّهم انتصر لإخواننا السوريين.

اللّهم شدّ أزرهم اللّهم عليك بالطاغية ومن والاه اللّهم خذه أخذ عزيز مقتدر.

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 183 ـ 184، انظر: ابن كثير: 1/ 497، والطبري 409/3، والقرطبي 272/2، وفي ظلال القرآن 135/1، والتحرير والتنوير 154/2.

اللّهم انتصر لعبادك المؤمنين نصراً عزيزاً واهدهم صراطا مستقيما. سدد اللّهم رأيهم وسدد رميهم وأعدهم إلى ديارهم سالمين يا رب العالمين.

اللّهم انتصر لأهل الأقصى. اللّهم حرر الأقصى ومن والاه.

اللّهم فكّ أسرانا وعاف مبتلانا وأطعم جائعنا وأمّن خائفنا. بارك اللّهم في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرشد والصدق وول عليها خيارها وحقق بها مطالب شعوبها وأحبط مكائد أعدائها يا رب العالمين.

اللّهم صل وبارك في البدء والختام على محمد بدر التمام.

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما. إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

حتميات الصحوة الإسلامية ومقتضيات الواقع[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. أيها الإخوة أيها الأبناء نحييكم بخير التحية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مصر كنانة نبيّنا. حديثنا في هذه الجمعة يتعلق بحدث كبير جرى هذه الأيام في قلب بلدنا العربي الإسلامي: مصر كنانة نبينا عليه الصلاة والسلام والمصريون هم أصهار النبي ﷺ.

هذا البلد له قيمة كبرى وقد عرف سلسلة من الأنبياء والرسل ومن ذوي العزم فكانت له مشاركات مفصلية في تاريخ الأمة ذلك أن هذا البلد حُسمت فيه حروب التتار وهي الحرب الجارحة التي هددت مصير الإسلام، وكذلك حسمت فيه المعركة ضد الصليبيين، وحسمت فيه أيضاً المعركة ضد الانحراف. انطلق المذهب الإسماعيلي من تونس واستوطن مصر كعاصمة له،

---

(1) 5 جويلية 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

وفيها حسم الانحراف في الإسلام عن طريق هذا المذهب المسمى بالمذهب الفاطمي المنحرف وهو مذهب من مذاهب الشيعة الأشد انحرافاً.

حسمت تلك المعارك في مصر، لذلك فإن مصير هذا القطر المقاوم هو جزء من مصير هذه الأمة.

وفي هذا الصدد وإزاء هذه الأحداث التي تدور اليوم نريد أن نؤكد الحقائق التالية.

ماذا يدور بمصر؟

أولاً ـ إن ما حصل هو بشكل واضح عملية انقلاب على إرادة الشعب الذي عبر عنها تعبيراً حديثاً وتعبيراً إسلامياً، تعبيراً شورياً ديمقراطياً في انتخابات اعترف بمصداقيتها الجميع. وما حصل هو نكوص عن الإجماع وعن إرادة الناس.

والنبي عليه الصلاة والسلام يزكي إرادة الأمة، ومن شهد له الناس بالخير فهو على خير ومن شهد له الناس بالحسنى فهو حسن.. والترجيح بالكثرة كما يقول العلماء هو أصل في العلوم الشرعية والسياسة الشرعية. إن الكثرة أعطت موقفاً واضحاً وما حصل هو نكوص عن إرادة الناس.. وإرادة الناس من إرادة الله سبحانه وتعالى ولذلك اعتُبرت من الفضائح أن أدعياء الديمقراطية والحداثة وحقوق الانسان أن يصفقوا ويهللوا ويطلقوا إشارات أضواء الزينة وهذه من الفضائح مثلما تحدث عنها الغزالي في سياق حديثه عن فضائح الباطنية ونحن إزاء فضائح أدعياء الحداثة التي تعني في جوهرها محض الحرية واحترام إرادة الناس. هؤلاء (الانقلابيون) مهزومون وليسوا منتصرين لذلك ينبغي أن لا نرتاب قط في أن الوقوف مع الانقلاب هو وقوف مع الباطل ووقوف ضد كل المعاني الإنسانية الحديثة، معاني الديمقراطية وحقوق الإنسان وإرادة الشعوب. وبالتالي فهو موقف رجعي نكوصي بدائي في الحقيقة وهذا يذكرنا بنوع من أنواع الردة في الإسلام وبالعودة إلى الفوضى التي كانت في الجاهلية بما فيها من معاني التخلف. نحن نريد أن نؤكد أن المستقبل هو إن شاء الله في جانب العدل والحرية وأن الوقوف مع الحق لا يضيّع صاحبه.. ومن الأكيد أن المبادئ لا تتسبب البتة في خسارة أصحابها حتى وإن بدا في وقت قصير أن أصحابها خسروا.. إن الله ﷻ أقام نظام هذا العالم على الحق وعلى العدل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[1] فإذا رأينا الظلمة والمخادعين والكذّابين يسودون فما ينبغي أن نبتئس وإنما نستحضر قيمة نوّه بها الإسلام وأشار إليها مرات كثيرة وهي قيمة الابتلاء حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾... [2]. هكذا نوّه الإسلام بقيمة الابتلاء، وعهد الله لا يناله الظالمون، أهل الله في نصرة الحق، والعدل لا يناله الظلمة لكنه ابتلاء.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 105، انظر: ابن كثير: 5/ 127، والطبري 573/17، وفي ظلال القرآن 47/5، والتحرير والتنوير 229/15.

(2) سورة البقرة، الآية: 124، انظر: ابن كثير: 1/ 405، والطبري 7/2، والقرطبي 96/2، وفي ظلال القرآن 85/1، والتحرير والتنوير 699/1.

الخطوط المتصاعدة وحتمية التوافق:

ثم إن خط التاريخ يتجه قُدُماً نحو تحقيق مزيد من الحرية ومن العدل ومن الحقوق لكن هذا الخط لا يسير دوما باتجاه صاعد لكن عندما تتأمل جزئياته ترى في تفاصيله جزئيات الصعود والنزول لكن عندما ننظر إليه من رؤية كبيرة ندرك أنه خط صاعد. كما ننظر إلى الأسرة البشرية أنها مركبة من زوجين لكنها شقت طريقها وسط الأمراض والأوبئة والوحوش والأهوال. لكننا اليوم نرى البشرية بأعداد هائلة بما يقارب السبعة مليارات انطلقت جميعها من زوج: من رجل وامرأة. وتاريخ الأنبياء والرسول ﷺ يقول: «**عُرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان**» ولكننا نرى اليوم أن حركة الأنبياء هي الأكثر في العالم. كذلك والشأن العلمي الذي بدأ بعدد قليل من العلماء وهؤلاء تضافر عليهم الجهلاء وقتلوا منهم وحرضوا عليهم لكن حركة العلم ظلت صاعدة، وكذلك الشأن بالنسبة لثورات الحرية فقد بدأت محصورة.. وقد قتل الثوار وشرّدوا لكن حركة الحرية ظلت تمتد في العالم.

حركتنا أيضاً بدأت عام 1969 بعدد لا يتجاوز أربعة أو خمسة أنفار قليلين ولا أحد من الشباب كان يصلي ولا كانت المساجد عامرة ولكن رغم القمع في الطريق وكما بدا لبعض الناس في التسعينيات مثلا أنّ هذه الحركة قد انتهى شأنها لكنه في الحقيقة انكسار قليل.. وفي المحصلة نرى باستمرار نمو هذه الحركة واتساعها.. ثم أين الحركة الإسلامية في مصر في الخمسينيات وقد كانت معزولة تماما وقتل مرشدها وظلت السجون لعشرين سنة وهي تحتشد بالمؤمنين والدعاة ولكننا نرى اليوم الساحات الكبرى تمتلئ بالإخوان ونرى رئيسا منهم..

هكذا ينبغي أن ننظر إلى ما حل أنه نوع من الابتلاء: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] ثمة دروس لا بد أن تُستكمل. هناك جملة من التدريبات لا بد أن تمر بها وما يحصل الآن هو استكمال شروط الإمامة ونوع من تعلم دروس جديدة من تجربتنا ومن هذه الدروس التي ينبغي أن نتعلمها هو الاستمرار في مسيرتنا على الإجماع أو ما نسميه التوافق وأن لا نسير وحدنا بل نسير ومعنا العدد الغفير ونسير ومعنا الأمة «سيروا على سير ضعفائكم»[1] أي أن نحرص على ينضمّ الجميع ما أمكن ذلك إلى السفينة ولا ندع نصف العبء منسيا خارجها، ونحن نقود الأوطان ينبغي أن نحرص على الإجماع وعلى التوافق ولو أعطينا في ذلك تنازلات، لأن التاريخ لن يتوقف عند هذه المرحلة. بعض الناس يقولون إننا أعطينا تنازلات كثيرة لكنني أقدّر أنها ليست تنازلات ولكنها «تعالي» هكذا ينبغي أن نتعالى ونحرص على أن تظل مسيرتنا في تقدم مستمر ولو بخطوات بطيئة ولكنها تتقدم غير أنه من الضروري أن ننتبه إلى مواقعنا حتى لا ننكص إلى الوراء وكما أن إمكانيات التقدم واردة فإن إمكانيات النكوص إلى الوراء واردة ومسيرة

---

(1) في «كشف الخفاء» للعجلوني 1/464 (دار إحياء التراث العربي): قال في «المقاصد»: لا أعرفه بهذا اللفظ، ولكن معناه في قوله ﷺ: «**أقدر القوم بأضعفهم فإن فيهم الكبير والسقيم والبعيد وذا الحاجة**».

الإسلام هي اليوم صاعدة وهي دائما صاعدة حتى وإن بدا في بعض الفصول أن الحركة في حالة تراجع.

مظاهر الصحوة:

المشهد العالمي اليوم يكشف بكل وضوح بأن الإسلام في حالة صحو وفي حالة فوران وفي كل يوم تفتح مساجد جديدة في العالم وأيضاً تفتح قلوب جديدة وعقول جديدة وأحزاب جديدة وفي كل يوم نرى شجرة الإسلام تتضاعف أغصانها وتنمو بعد أن كانت مختزلة في النطق بكلمة لا إله إلا الله وإذا بها تتحول إلى صيام وصلاة وحج بعد أن كان مجردا منها في بلادنا وخارجها. .حتى قام حاكم البلاد في أول يوم من أيام رمضان يحتسي الكأس أمام الناس ولكن هل بقي أحد يجروئ اليوم على هذا؟ لا أحد يجروئ على ذلك لأن شجرة الإسلام والحمد لله أينعت وأزهرت وأخرجت أغصاناً.

اليوم من أنصار الحبيب من يقف على البنوك الإسلامية والمصارف الإسلامية والفنون الإسلامية والجمعيات الخيرية ومعاهد العلوم الإسلامية والإسلام اليوم في حالة صحو وانتعاش وتمدد في العالم.

لذلك إذا رأينا انكساراً هنا أو هناك فهذا لا يغير مشهد المسيرة العامة التي تتسم بصبغة إسلامية صاعدة والحمد لله ولذلك فإن هذه الانتكاسات التي تحصل كما حصلت في مصر إنما هي من باب الفشل في الحقيقة لكنه فشل للنخبة المصرية وهو فشل في أن تحقق التوافق هو فشل حداثي بحيث لم تستطع الحداثة أن تتحمل وتستوعب التعددية السياسية وأن سفينة الوطن ينبغي أن تحمي الجميع.

إن الذين اختطفوا أوطاننا طيلة خمسين أو ستين سنة لم يكونوا قادرين على تحمل ديمقراطية أفرزت السلطة لمن كانوا في الهامش كي يصبحوا في قلب العملية السياسية وحوّلت من كان في القلب إلى موقع المواطن العادي، تعوزهم القدرة على أن يكونوا مواطنين مثل غيرهم ولكن هذا لا يغير شيئاً من مسار التاريخ، ذلك أن التاريخ يتقدم نحو مزيد من الحرية ومزيد من حقوق الشعوب إن شاء الله وما يحصل الآن لا يعدو أن يكون عمليات ابتلاء وتمحيص للنفوس ومزيد من الدروس التي يمكن أن نستخلصها وأن نحمل معا شعبنا نحو مزيد من الخير مبتعدين عن التعانف وعن حسم المعارك بواسطة القوة لأن الأصل كما قال الرئيس «مرسي»: أننا لا نجاهد بني وطننا وأن القتال نوجهه إلى الذين يقاتلوننا ونقاتل الذين يغزون بلدنا. أما أبناء وطننا فلا لغة معهم إلا لغة النطق والإقناع والحوار واللغة السياسية. .

والذين يستخدمون العنف اليوم هم اليائسون وما حصل في بعض المدن في منطقة قفصة إزاء اجتماع من اجتماعات إخواننا مجموعة من شباب «الجبهة» وليس بالضرورة أن يكون ذلك بقرار مركزي، هاجموا الاجتماع بالحجارة وهذا تعبير عما يسمونه العنف الثوري وعن إفلاس في المجال الديمقراطي وفي مجال الحداثة وضعف الحجة.

لا يسعنا إلا أن نأخذ بمنطق: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾... [1] ما حصل في مصر هو عين العنف وتدخل الجيش بالانقلاب هو أشد أنواع العنف.

التاريخ لا يعود إلى الوراء:

إن ما حصل في زمن صحوة الإسلام لا يعمر طويلا لأننا لسنا نعيش في الخمسينيات وما حصل في تلك السنوات كانت له أسباب داعية من استعمار للبلد بينما الانقلاب الذي يحصل اليوم لم يعد له مبرر مطلقا.

ما حصل أن هناك نخبة بائسة ويائسة من التغيير عبر صناديق الاقتراع. هناك نكوص إلى الوراء وهناك اجتماع بين المتناقضات. نعم هناك قوى ثورية لكنها لم تستوعب القيمة الديمقراطية وأن الإسلاميين جزء من الوطن فتحالفوا مع بقايا النظام وما يملكه من أموال ومن إعلام ومن نفوذ إداري وهو نوع من التحالف يحصل اليوم بين قوى ثورية وبين قوى النظام القديم وذلك بنوع من اليأس من التغيير ومحاولة تجميع أوراق وقوائم تقديرا بأن ما يحصل هناك يمكن أن يحصل هنا على الرغم أن ما يحصل هناك لا يمثل مساراً تاريخيًا بل هو عثرة لن تدوم طويلاً لأن الصحوة الإسلامية القادمة اليوم ولن تسمح بهذا النكوص إلى الوراء باختطاف هذه الثورة المباركة إن شاء الله.

ينبغي إخواننا أن ندرك ونستيقن أن هذا العالم ليس عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [2] وهذا الكون مبني على سنن وعلى أنظمة ولذلك فإن التمسك بمبادئ الحق والعدل والحرية والصدق والأمانة لا يضيع أصحابه.

إن الدكتور مُرسي في هذه المحطة يذكرنا بعثمان بن عفّان ﷺ وهو الذي لما جاءه عدد من الثائرين جزء منهم من النظام القديم وجزء منهم لم يتفقه في الدين بعد.. جاؤوا ليفرضوا عليه تقديرهم من أن هناك مظالم ـ ربما كانت هناك مظالم أو ربما كانت هناك أخطاء ـ ولكن ليس بمنطق «وداوني بالتي كانت هي الداء». والأخطاء يمكن أن تعالج ولكن لا تكون المعالجة إلا بالحوار. حكم مُرسي لا يعني أن ليس فيه أخطاء كما أن حكم سيدنا عثمان لا يمكن أن لا يكون فيه أخطاء ولكن المعالجة التي أرادها بعض الشباب الثائر الذين اختلطوا حتى بأعداء الإسلام هؤلاء جاؤوا ضاغطين على الخليفة من أجل أن يتنازل عن السلطة ولكن قال كلمته

---

(1) سورة فصلت، الآية: 34، انظر: ابن كثير: 7/ 179، والطبري 468/21، والقرطبي 359/15، وفي ظلال القرآن 278/6، والتحرير والتنوير 228/24.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 115، انظر: ابن كثير: 4/ 248، والطبري 83/19، والقرطبي 156/12، وفي ظلال القرآن 246/5، والتحرير والتنوير 93/18.

المعروفة «لا أنزع قميصاً قمّصنيه الله» بما يعني: إني لا أتخلى عن هذه الأمانة لمجرد ضغوط هنا أو هناك.. وعندما يتحدث المسلمون عن حقوق الله إنما يتحدثون عن حقوق الأمة.. وفي النهاية أُهدر دم عثمان وسال دمه على المصحف وهو يتلو كتاب الله سبحانه وتعالى..

سجل عثمان ﷺ مأثرة مهمة جدا في أن الحكم أمانة وأن هذه الأمانة لا يتنازل عنها صاحبها تحت أي ضغط إلا إذا ثبت فعلا أن الذين ائتمنوه تراجعوا عن ذلك أما أن يأتي مجموعة من الشبان الثائرين أو مجموعة من الناكسين لتضغط على الحاكم كي يتنازل وقد أخذ السلطة باستفتاء واضح سلّم الجميع بنتائجه فلا يمكن أن يرد الأمانة إلا إلى أهلها.

صحيح لقد نتجت كوارث بعد مقتل عثمان وانقلب الحكم بعد أمد إلى ملك عضوض ولكن ظل عثمان يمثل معلما من معالم السياسة الشرعية خلاصتها أن الإمامة بالبيعة وأن البيعة لا ينبغي أن تنقض في الطريق والبيعة لا ينقضها إلا من عقدها وهو الشعب. نحن إذن إزاء واقعة تاريخية مهمة اليوم وهي واقعة جديدة أن حاكما منتخبا يراد ألا تنزع منه السلطة بطريقة غير مشروعة وبالتالي فإن هذا يعتبر انقلابا لا دوام له وأن مسيرة التاريخ نحو تمكّن الشعوب من حقها المشروع أن تنتخب الحاكم وأن تسحب منه الشرعية عبر الطرق المنظمة وأن التاريخ ماض قُدُماً نحو مزيد من الحرية ومزيد من تنظيم السلطة عبر الشورى وعبر الانتخابات وهذه هي الشرعية.

ينبغي أن نستلهم أنّ ما حصل هو انتكاسة وهو فضيحة لفاعليها ولكنها لن تغير مجرى التاريخ الذي يتقدم سريعا نحو مزيد من الحرية ومزيد من نشر الإسلام والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

* * *

الخطبة الثانية
أداب الصوم

اللّهم صل وسلم على سيدنا محمد وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

رمضان شهر الفضائل:

حفظكم الله أيها الإخوة شهر عظيم تفتّح فيه أبواب الجنة وتغلّق فيه أبواب النيران وتصفد فيه الشياطين ويقال فيه لفاعل الخير أقبل.

نسأل الله أن يمد أعمارنا حتى نبلو هذا الموسم العظيم موسم الخير موسم القرآن الكريم، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿183﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾...[2].

فهو شهر التقوى لسنا نتقي الله في رمضان فقط وإنما نتقي الله في كل حين ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿99﴾﴾[3] واليقين هو الموت. فالله سبحانه وتعالى خلقنا لعبادته ينبغي أن نعبد الله في كل حين إلا أن هناك مواسم تتكاثف فيها البركات وتتنزل فيها الخيرات مثل موسم رمضان

---

(1) سورة البقرة، الآية 185، انظر: ابن كثير: 1/ 501، والطبري 3/444، والقرطبي 2/290، وفي ظلال القرآن 1/145، والتحرير والتنوير 2/168.

(2) سورة البقرة، الآيتان 183 ـ 184، انظر: ابن كثير: 1/ 497، والطبري 3/409، والقرطبي 2/272، وفي ظلال القرآن 1/135، والتحرير والتنوير 2/154.

(3) سورة الحجر، الآية: 99، انظر: ابن كثير: 4/ 551، والطبري 17/159، والقرطبي 19/88، وفي ظلال القرآن 4/451، والتحرير والتنوير 14/90.

وفيه خيرات كثيرة. ليس هو الصوم فقط وإنما هو تحريك لكل العبادات وتنشيط للجهاز الإسلامي قاطبة: من تلاوة للقرآن ومن صلاة إذ لا نصلي الفرائض فقط وإنما نصلي التراويح أيضاً وينشّط زكاة المال من خلال زكاة الفطر وينشط أيضاً الذكر والأخوة الإسلامية من خلال التزاور والدعوات إلى الإفطار **«من فطّر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً»**.

هذا موسم فيه خيرات كثيرة أيها الإخوة وعليه فلنقبل عليه بعزم أكيد أن يكون حالنا قبل رمضان غير حالنا بعده وقد مررنا بمدرسة الثلاثين يوماً، ورمضان مدرسة نتدرب فيها ثلاثين يوما على التقوى أي على تكثيف العبادة وتكثيف عمل الخير والتدرب عليه ولا تأتي نهاية رمضان إلا ونجد نفوسنا في حال أفضل مع الله سبحانه وتعالى وفي حال أفضل مع الناس وقد أصبحنا أكثر انفتاحا على محيطنا وأصبحنا أكثر تحكما في شهواتنا ورمضان فيه الصوم وليس الصوم عن الأكل والشرب فقط وإنما صوم اللسان عن الأذى وقول الزور فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: **«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»** ولذلك فإن رمضان هدية عظيمة فأحسنوا استقبال هدية ربكم إليكم وأحسنوا التعاون معها.

اللّهم وفّقنا لما تحب وترضى.

اللّهم اجعلنا من الذين يصومون الصيام الحقيقي.

اللّهم اجعلنا ممن يقيمون رمضان وممن يتلون كتاب الله سبحانه وتعالى.

اللّهم اجعلنا من الصائمين القانتين الذاكرين.

اللّهم اجعلنا من المتحابّين المتباذلين المتزاورين.

اللّهم انتصر لدينك وأوليائك في مصر.

اللّهم ثبت الإسلام تثبيتا عظيما يا رب العالمين.

اللّهم احفظ مصر قلعة للدين وأهله يا رب العالمين.

اللّهم اجعلها منارة للهدى وأحبط كيد الكائدين يا رب العالمين.

اللّهم فكّ أسر إخواننا.

اللّهم فك أسرانا وعاف مبتلانا وانصر قضايانا.

اللّهم لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته ولا عيبا إلا سترته ولا هما إلا فرّجته ولا أسيرا إلا حررته ولا مجاهداً إلا سددت رايته وسددت رميه.

اللّهم انتصر لإخواننا في سوريا، اللّهم كفكف دماءهم ودموعهم وعجل بنصرهم يارب العالمين.

اللّهم فكّ قبضة الطاغية على رقابهم يا قوي يا متين وآمنهم في ديارهم وأظهارهم وذراريهم يا رب العالمين.

اللّهم آوهم إلى ركنك الشديد.

اللّهم بارك في ثورات المسلمين وأنزلها منازل الرشد والصدق وول عليها خيارها ولا تول عليها شرارها يا رب العالمين.

اللّهم أعل بها كلمة الحق والدين وأحبط بها كيد الشياطين ولا تجعل لفاجر ولا لفاسق علينا سلطانا يا رب العالمين. وصل اللّهم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

* * *

العدل في أفق الفهم والإجراء[1]

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿33﴾﴾ [لقمان: 33][2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾ [الأحزاب: 70 ـ 71][3]. ألا إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

منزلة العدل في عموم المجتمعات:

لقد أقام الله سبحانه وتعالى نظام العالم على العدل وكلما حاد الناس عن العدل كلما اضطربت أحوالهم وشقيت حياتهم وبقدر اقترابهم من العدل يكون اقترابهم من السعادة ومن مرضاة الله سبحانه وتعالى وهذا هو نظام الكون ولذلك تعتبر قيمة العدل هي القيمة المركزية في النظام الإسلامي وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

---

(1) 12 جويلية 2013.

(2) سورة لقمان، الآية: 33، انظر: ابن كثير: 6/ 351، والطبري 158/20، والقرطبي 81/14، وفي ظلال القرآن 18/6، والتحرير والتنوير 138/21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 ـ 71، انظر: ابن كثير: 6/ 487، والطبري 335/30، والقرطبي 252/14، وفي ظلال القرآن 101/6، والتحرير والتنوير 247/21.

﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1]. إن الفحشاء والمنكر والبغي كلها صفات ناقضة للعدل فالله تعالى يأمر بالعدل ولا يأمر بالظلم وهذه الآية هي من أشهر الآيات. ولذلك يرددها الأئمة في الخطبة الثانية وهذا مشهور لدى خليفة صالح وهو عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبر الخليفة الراشدي الخامس.

لماذا بقيت هذه الآية تردد من طرف الأئمة؟ لأنه صدر فيها أمر من أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز إلى الأئمة أن يجعلوها في خاتمة خطبتهم الثانية لماذا؟ ربما لأهمية قيمة العدل في الإسلام حتى يبقى تذكير الأمة بهذه القيمة أمرا ثابتا. وقد حصل ذلك بسبب وقائع جرت وتتمثل في أن التقاتل الذي حصل بين المسلمين: بين الخليفة الراشد الرابع وبين واليه الذي تمرد عليه من بلاد الشام وحصلت معارك انتصر فيها الوالي على الخليفة وانتقل بذلك الحكم الإسلامي من الخلافة الراشدة إلى الحكم الوراثي والملك العضوض بالتعبير النبوي. وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز وقد وجد آباءه من الخلفاء الأمويين قد أمروا الأئمة أن يجعلوا في خطبتهم اللعنة على علي. بحيث أصبح الإمام يلعن بسبب سياسي. فنزل أمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز يأمر الأئمة أن يتركوا هذه اللعنات وأن يحلّوا محلها هذه الآية واعتبر ذلك اللعان ظلما وينبغي أن لا يلعن بعضنا بعضا كما ينبغي أن نذكر الناس بالعدل.

العدل وحقيقة الصراع الدائر في العالم:

إنّ الصراع الحقيقي في العالم إنما هو صراع بين العدل وبين الظلم سواء كانوا شعوبا أو أشخاصا يطالبون بالعدل: العدل في القضاء أو في السياسة أو في المال وهو مطلوب في كل المجالات. لذا ينبغي أن نعدل حتى في الابتسامات بين أطفالنا وإذا قبّلنا طفلا ينبغي أن نعدل ونقبّل الطفل الآخر وإذا شكرنا طفلا من أطفالنا ينبغي أن نشكر الآخر أيضاً وأن نوزّع الابتسامات بعدل بين أطفالنا فضلا عن العطاء المادي والهدايا. ينبغي أن نحرص على إقامة العدل في بيوتنا وبين أطفالنا مع نسائنا ومع جيراننا. فالعدل ليس مجاله الدولة فقط وإنما يتسع مجاله عند كل سلوك بشري وكل عمل بشري يجب أن يقوم على العدل حتى مع بهائمنا وحيواناتنا ينبغي أن نكون عادلين في شأنها فلا نكلفها أكثر مما تطيق ولا نجوّعها. هكذا ينبغي أن نعدل مع المسلم كما ينبغي أن نعدل مع الكافر. فالعدل هو قيمة مطلقة في الإسلام ولذلك يقول ربنا ﷻ: [المائدة: 8] ويجب أن تعدل حتى مع عدوك. وأن تعدل وإن كان من ذوي القربى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2] ويجب أن تعدل حتى مع

---

(1) سورة النحل، الآية: 90، انظر: ابن كثير: 4/ 595، والطبري 17/279، والقرطبي 10/165، وفي ظلال القرآن 4/484، والتحرير والتنوير 14/254.

(2) سورة المائدة، الآية: 8، انظر: ابن كثير: 2/ 6، والطبري 9/483، والقرطبي 6/37، وفي ظلال القرآن 2/309، والتحرير والتنوير 6/81.

عدوك. وأن تعدل وإن كان من ذوي القربى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]. فالعدل قيمة مطلقة مع القريب والبعيد مع الصديق ومع العدو مع الإنسان ومع الحيوان على السواء. ينبغي توخي ميزان العدل. ولذلك فإن الذين يصفون المسلمين بازدواجية المعايير أو ازدواجية الخطاب فهذا كلام عار عن الصحة لسبب بسيط هو أن المسلم لا يستطيع أن يكذب ويمنع عنه الكذب وإنما يشقى العالم بقدر ابتعاده عن العدل.

حقيقة ما يجري في مصر

ما يحصل اليوم في مصر ليس هو صراع بين حزب وحزب ولا هو صراع بين الإخوان المسلمين وحركة تمرد أو الجيش وإنما هو صراع في جوهره بين العدل وبين الظلم.. بين فئة تريد أن تحكم وفق القانون ووفق الدستور ووفق نتائج الانتخابات وبين فئة أخرى تستمد شرعيتها لا من العدل ولا من الدستور ولا من الحق وإنما تستمد شرعيتها من القوة.

والصراع بين الحق والقوة قديم سواء أكانت هذه القوة قوة السلاح أو قوة المال أو قوة الإعلام فهي القوة مقابل الحق. ومبادئ الحق عندنا إنما تأسست على دين يمنعنا من أن نظلم الناس بينما عند الآخرين فإن مبادئ الحق ليست مؤسسة على دين لكنها مؤسسة على مصالح. والمصالح دوّارة لا عجب أن نرى الدول الديمقراطية اليوم تقدس شرعية الانتخاب وصناديق الاقتراع نراها تناور وتتلعثم في توصيف ما حصل في مصر.. فلا تصرح بأنه انقلاب أو أنه ظلم ولكنها أحياناً تقول إنه تصحيح وأحياناً أخرى تدعو الطرفين إلى الحوار كأنهما طرفان متساويان وهو موقف يضاهي معظم المواقف الغربية فضلا عن المواقف العربية التي تدخلت بشكل سافر لنصرة الظالم على المظلوم.

ومن الممكن أن نلتمس لهؤلاء (العرب) عذراً حيث رأينا أموالا تنهال بسرعة دعما لشرعية القوة ومن الممكن أن نعتذر لهؤلاء لكن كيف نعتذر لدول تؤسس لشرعية صناديق الاقتراع وتعلي سلطة القانون وتعلي المجالس المنتخبة وتعلي الدساتير. إنها تبعث برسائل للمسلمين ولسان حالها ينطق: أيها المسلمون لا تثقوا في الديمقراطية. والديمقراطية ليس عندهم طريق الشرعية وهو طريق يخضع للقوة لا غير ولذلك إذا أردتم أن تشاركوا في السلطة فما عليكم إلا أن تبحثوا عن وسائل القوة. وهي رسائل خير. خاصة أنهم يزعمون أنهم يقاومون الإرهاب ولكنهم في الحقيقة يبعثون برسائل تشجيعية للإرهاب كأنما يقولون للمسلمين إن طريق الحق وطريق الديمقراطية لا يحقق الهدف الذي لا تحققه إلا القوة وهذا أمر خطير.

---

(1) سورة النساء، الآية: 135، انظر: ابن كثير: 2/ 433، والطبري 9/ 301، والقرطبي 5/ 410، وفي ظلال القرآن 2/ 258، والتحرير والتنوير 5/ 224.

رسائل خطرة ضد الديمقراطية:

ولذلك لما قابلنا ممثلي الدول الغربية نبهناهم إلى أنّ ما يفعلونه من تأييد للانقلاب كأنما في الحقيقة يزرعون بذور الإرهاب في المنطقة ويرسلون رسائل خطرة جدا إلى شباب الإسلام كي لا يثق في الديمقراطية.

هذه رسائلهم أما رسائلنا فإننا نقول بأن الحق أصيل في بنية هذا الوجود. والحق ليس بالأمر العرضي لذلك ما اعتصم الناس بالحق وتمسكوا به وناصروه فإن الحق منصور في النهاية حتى وإن بدا الأمر على غير ذلك ونحن اليوم نرى شعب مصر العظيم يصمد في معركة الحق ويرفض تلقي هذه الرسائل التي أرسلت إليه من سلبية الديمقراطية وإيجابية القوة ولم يقع في فخ الاستدراج إلى هذا المنزلق واعتصم بأن الحق ينبغي أن لا ينصر إلا بالحق ولا ينصر الحق بالباطل ومهما بدا أن الباطل انتصر وغلب بالقوة لكن مصيره الهلاك ومصير كل من يجذّف في هذا الطريق ولذلك نرى شعبنا وصل اليوم إلى أهدافه من خلال صموده واعتصاماته التاريخية والمليونية العظمى فوّت وفوّت ولا يزال يفوت على فصول فرضية الدفع والاندفاع نحو الفتنة والفتنة تعني أن يقتل المسلم أخاه المسلم.

إن ما حصل أمام مبنى الحرس الجمهوري جريمة بكل معنى الكلمة وهي مجزرة نترحّم على ضحاياها نسأل الله لهم الرحمة ونسأل الله للجرحى الشفاء ونسأل الله لذويهم الصبر والسلوان وهي جريمة. والعالم كله وقف يتلعثم وأحياناً يبتسم وأحياناً يشجع وهو دليل على أن هذا العالم ليس مبنيًا على الحق وليس مبنيًا على العدل وليس كما يريده الله سبحانه وتعالى وإنما هو مبني على القوة وعلى المخاتلة وعلى الخداع وعلى الحسابات الضيقة والقريبة ولا ينبغي أن يستدرجنا كل هذا إلى المنزلقات الخطرة أن نرد على الشر بالشر لكن الصحيح هو أن يقاوم الشر بفعل الخير.

إن ما يقوم به المعتصمون في الساحات المصرية هو تعبير عن نضج وهو ردّ على لغة القوة بلغة الحق وبلغة الصبر وبلغة الصمود ونحن مستيقنون أن الحق منصور إن شاء الله مهما طال الطريق ولأن الله سبحانه وتعالى اقام نظام العالم ونظام الكون بأسره على العدل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[1]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[2] نحن لا نراه منصورا

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 105، انظر: ابن كثير: 5/ 127، والطبري 573/17، وفي ظلال القرآن 47/5، والتحرير والتنوير 229/15.

(2) سورة الإسراء، الآية: 81، انظر: ابن كثير: 5/ 111، والطبري 537/17، وفي ظلال القرآن 40/5، والتحرير والتنوير 187/15.
قال الأستاذ سيد قطب: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.. لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية، فإذا تخلخلت تلك العوامل، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار. فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده، وقد تقف ضده الأهواء، وتقف ضده الظروف، ويقف ضده السلطان.. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى، ويكفل له البقاء؛ لأنه من عند الله...

لكن نحسب أنها أمور عارضة. وقد سبق أن عاب الإعلام على الرئيس «مرسي» بأنه مستبد وبأن السلطات أصبحت بيده فجاؤوا وألغوا الدستور الذي صوّت عليه ثلثا الشعب المصري وألغي بإذن من الانقلاب وبشرعية القوة وتم الإعلان عن دستور جديد.هذا الدستور قامت به مجرد لجنة موظفة وقع تكليفها. وهو يضع السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية كلها في يد الرئيس الجديد. ولذلك حتى الجماعات التي قادت التمرد رفضته الآن لأنها وجدت نفسها لا في العير ولا في النفير وإنما وقع استعمالها وتم توظيفها لمصلحتهم ثم تركتهم جانبا وتبين أنها جماعات تمّ توظيفها في يد آخرين من أصحاب شرعية السلاح الذين وظّفوا القضاء ووظفوا حركات الشباب ووظفوا أخطاء الحكم، وظّفوا كل ذلك من أجل أن يستعيدوا سلطة ألفوها أكثر من ستين سنة. ولذلك تم استغلال الشباب الغاضب والناس المحرومين والقضاة كل ذلك من أجل استعادة سلطة لم يستطيبوا أن يسلموها للشعب ولممثليه.

هل ينعكس الوضع المصري على تونس:

تصوّر بعض الناس أن حصول ذلك في بلادنا أمر ممكن. وهو بالفعل ممكن. وفرص الإفساد تبقى دائما قائمة وهناك من يمكن التغرير به وهناك أصحاب المصالح. وعندنا أيضاً أوضاع مشابهة وعدنا أناس استمروا في السلطة منذ أكثر من خمسين سنة ولم يستطيعوا التسليم للشعب التونسي وهم يعرفون أن لنا مجالس ولنا حكومة منتخبة ولكن كل هذا بالنسبة إليهم لا يساوي شيئاً.

هكذا رجع التحالف القديم بين المتطرفين الأيديولوجيين وبين بقايا النظام القديم. هذا هو التحالف الذي ضرب الحرية والديمقراطية والعدل في بلادنا فلا عجب أن يطمع في أن يستعيد السلطة لعل هذا أمر ممكن لكن هؤلاء لا ينبغي أن يطمئنوا بل ينبغي أن يُذكّروا بأنه وإن أمكن لسارق أن يسرق السلطة في غفلة فإنّ حراس البيت اليوم مستيقظون. والشعب المصري قام ثائرا بعشرات الملايين في مدنه يرفض هذا السطو وهذه السرقة وهذه اللصوصية. كلهم يرفضونها. ولذلك لا أحد(في تونس) يحدث نفسه بأنه يمكن أن يفعل ما حصل في مصر لأنه إذا فعلها فهناك ثورة قام بها الشعب وهو يحرسها بإذن الله سبحانه وتعالى ولن يسمح لأي لص من اللصوص أن يعيد الكرة حتى وإن سطا في لحظة غفلة الناس.هؤلاء الناس لم يعودوا غافلين ولذلك تراهم يخرجون متظاهرين في بلادنا بل هم يتظاهرون اليوم في العالم بأسره تأييدا للحق في مصر واحتجاجا على السطو واللصوصية التي حصلت وانتصارا لمبدإ العدل ونحن مطمئنون أن النظام في العالم قائم على العدل وعلى الحق وبالتالي فإن الباطل ليس له من مصير إلا البوار وإلا أن يزهق وهذه سنة ربنا.. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: 81]. والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

الخطبة الثانية
من فضائل الصوم

الحمد لله رب العالمين مالك الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

رمضان شهر الإمساك:

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

شهر رمضان ـ أيها الإخوة ـ موسم عظيم من مواسم الخير. نحن في اليوم الثالث من هذا الشهر الكريم وهذا الموسم العظيم. وقد أقبلنا على هذا الشهر بشوق وشغف لأنه شهر محبب للنفوس الخيّرة وهو موسم عظيم للخير ولذلك ينبغي أن نحرص على أن لا تفوتنا ساعة من ساعاته دون أن نتقرب فيها إلى الله بقربة من القربات. وشهر رمضان يحرك النفوس ويحرك طاقات الإنسان، يحركها إلى فعل الخير من جهة والصيام هو إمساك ولكنه ليس مجرد إمساك عن الأكل والشرب فقط وإنما هو أيضاً إمساك للجوارح كلها عن الآثام: مسك العين عن النظر إلى ما حرم الله ومسك اليد أن تأخذ ما حرّم الله ومسك البطن أن تحتوي ما حرم الله ومسك الرجل أن تمشي إلى ما حرم الله وهكذا فالمسلم له كوابح.

هذا هو جوهر الصيام وهو يقوّي كوابحنا ونستطيع أن نقول لأنفسنا وللشيطان: لا.

هذا من الجهة السلبية أما من الجهة الإيجابية فذلك يستدعي أن نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى لأن الصائم يصبح شبيها بالملائكة. إذا صام أحدكم وجاءه أحد سابّه أو شتمه فليقل إني صائم. ولا نسمح بأن نستدرج إلى خصومة أو إلى ملاسنة أو إلى تشاتم. بحيث نتشبّه في هذا الشهر بالملائكة من خلال التقليل من الطعام والتقليل من ساعات النوم والإكثار من الذكر ومن التسبيح ومن فعل الخيرات.

في الجهر بالإفطار:

ولذلك إخواننا استغربت من أحد المسؤولين في هذه البلاد وهو يحتج على وزير الشؤون الدينية لإصداره قراراً بغلق المطاعم والمقاهي.

هذا شعب مسلم والحديث ليس على الأماكن السياحية ممن ليس الصوم مفروضا عليهم. . أما التعلل بأصحاب الأعذار فليس هناك من يفتح مطعما من أجل أصحاب الأعذار من المرضى أو المسافرين. والمدار الحقيقي أن هنالك سمتا عاما والبلاد في حالة صوم فلا ينبغي لأحد أن يستفز الآخرين.

وإنما الصوم عبادة صامتة والعبادات الأخرى هي عبادات ناطقة كالحج والصلاة والزكاة كلها نُرى بينما الصوم عبادة صامتة (في السرّ) لذلك ورد في الحديث القدسي: **«الصوم لي وأنا أجزي به»**. والله وحده يعلم أن فلانا صائم أو غير صائم. والصيام جوهره إخلاص لله سبحانه وتعالى ككل العبادات ولكن هذه العبادة خاصة بالله لأنه لا أحد يطلع على صوم الآخر إلا الله وحده سبحانه وتعالى.

والمدار أن هذا مجتمع مسلم ينبغي أن تحترم الأخلاق العامة ولا يستفز بعضنا البعض. وإذا ما ذهب شخص ليأكل في لبته ويعتبر نفسه سائحا في هذا البلد وليس من أهلها فما عليه إلا أن يباشر الأماكن السياحية. ولكن هذا المجتمع هو مجتمع إسلامي. وقد وجب في هذا الشهر المبارك أن يحترم الناس بعضهم البعض ووجود أناس على قارعة الطريق يحتسون وربما يحتسون حتى الخمر فهذا نوع من الاستفزاز وفيه اعتداء على الأخلاق العامة وهذا (بالضبط) ما كانت تريد أن تفعله الأنظمة السابقة وهي تريد أن تحطم شيئاً اسمه الحياء من كون الإنسان يفطر على الملأ. لكن من ابتلي بالمعاصي فما عليه إلا أن يستتر ولا يتبجح بالإفطار وبالمعصية أمام الناس.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللّهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

اللّهم انتصر لإخواننا في كنانة نبيك محمد ﷺ.

اللّهم ثبّت أهل الإسلام في مصر اللّهم ثبت أهل الحق في مصر اللّهم انصر أهل الحق على أهل الباطل يا رب العالمين. اللّهم الذين استظهروا على شرعية الحق بشرعية القوة اللّهم لا تجعل لهم سلطانا على المسلمين يا رب العالمين.

الهم اغفر لنا وارحمنا. اللّهم ثبت إخواننا في بلاد الشام.

اللّهم كفكف دماءهم ودموعهم وعجل بنصرهم وفك قبضة الطاغية على رقابهم يا رب العالمين.

اللّهم يا قوي ويا متين أصلح شؤون المسلمين ظواهرها وبواطنها.

اللّهم رحمة منك تهدي بها قلوبنا وتلم بها شعثنا وتنصر بها إخواننا في كل مكان يا رب العالمين. وتعلي بها كلمتي الحق والدين وتنكس بها رايات الظلمة والشياطين يا رب العالمين.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون.

* * *

مصادر الحاشية

1. تفسير القرآن العظيم: تأليف: الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : 774هـ)، المحقق : سامي بن محمد سلامة، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999م.
2. جامع البيان في تأويل القرآن: تأليف: الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : 310هـ)، المحقق : الشيخ أحمد محمد شاكر، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000 م.
3. الجامع لأحكام القرآن: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671هـ)، المحقق : هشام سمير البخاري، الناشر : دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة : 1423هـ/ 2003م.
4. في ظلال القرآن، تأليف: سيد قطب، راجع موقع التفاسير على موقع النت: www.altafsir.com
5. التحرير والتنوير: تأليف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الطبعة التونسية، الناشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م.

النادي الشبابي

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	5
مجالات الإدراك العقلي ومناهج الحكم في الإسلام	9
الخطبة الثانية: رمضان.. ذلك الشهر المتميز	17
«بدر».. الدروس والعبر	20
الخطبة الثانية: كيفيات التعامل مع الفرقاء	27
فتح مكة: إيحاءات ودروس	31
الخطبة الثانية: رمضان تراحم أم احتراب؟	35
فنون الخلاف في التاريخ الإسلامي: هل هي في الفهم أم في المفاهيم؟	38
الخطبة الثانية: من المبادئ المشرقة في الإسلام: لا إكراه في الدين	41
حرمة المؤمن ومفاسد الإشاعات	44
الخطبة الثانية: حديث السفينة في سياق المواطنة والتعايش السلمي	49
كونية التواصل ولزوم الانخراط	52
الخطبة الثانية: «عام الجماعة» وضرورة التوافق	57
خشية الله بين الإدراك والممارسة	60
الخطبة الثانية: قتل النفس: أي معنى لهذا الجرم	66
أي تكريم يوليه الإسلام للمرأة؟: بمناسبة إحياء ذكرى «عيد المرأة»	69
الخطبة الثانية: أيّ مقاييس.. لترجيح كفة الخير	75
«في ذكرى الاستقلال»: الولد.. أم الغسيل؟	78
الخطبة الثانية: «حقوق الإنسان» في الدستور (التونسي): التأصيل والتأويل..	83
الإصلاح ومناهجه	87
الخطبة الثانية: أي مكانة في الإسلام للخلق الحسن؟	92

الموضوع	الصفحة

أواصر الوحدة وأسباب الاختلاف 96
الخطبة الثانية: أي مكانة للرفق في الإسلام؟ 103
آفاق التجديد في الشريعة الإسلامية 106
الخطبة الثانية: أدعية للمسلمين 111
العقود والمواثيق ودسترة الدولة في الإسلام 113
الخطبة الثانية: ينبغيات.. في شهر الصيام 119
حتميات الصحوة الإسلامية ومقتضيات الواقع 122
الخطبة الثانية: أداب الصوم 128
العدل في أفق الفهم والإجراء 131
الخطبة الثانية: من فضائل الصوم 136
مصادر الحاشية 139
فهرس الموضوعات 141

* * *

شباب
النادي الشبابي

ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : (صلوا كما رأيتموني أصلي) بينما يظل العقل لا يدرك أسباب العبادات وعلى سبيل المثال : لماذا فُرض الظهر أربعاً؟ ولماذا هناك خمس صلوات وليس ستة ؟ ولماذا كانت الصلوات بهذه الكيفية وليس بغيرها؟ وفي كل هذا فإن العقل لا يستطيع أن يدرك العلة . ولكن الحكمة من ذلك هي الامتثال لله سبحانه وتعالى ونحن نعبد الله ونصلي خمساً امتثالاً لله وهذه الصلوات نقوم بها بتلك الكيفية امتثالاً لله لأن المعنى الأساسي للدين هو ترويض النفوس على طاعة الله والخضوع لله والانقياد له لذلك فالإسلام هو الانقياد الكامل لله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ . فمقصد أساسي من مقاصد النبوات هو تعريف الناس بربهم. وتعريف الناس كيف يعبدون الله بطريقة لا تجعلهم يتيهون ولا يقعون في الدجل والخرافات .

لأسيد القمني

daralmojtahed@hotmail.com
دار المجتهد للنشر والتوزيع
AL MOJTAHED PUBLISHING HOUSE